بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

يَرْجِعُ اهتمامى بالدِّراسات الفاطمية ، والتاريخية منها بوَجْه خاص ، إلى أكثر من عشر سنوات أصْدَرْتُ خلالها عددًا من النصوص التاريخية الخاصة بمصر الفاطمية : للمُسَبِّحِى وابن مُيَسَّر وابن المَأْمُون ، بالإضافة إلى عددٍ من الدراسات المتخصِّصة عن تاريخ الفاطميين فى مصر واليمن ، وعن تَطَوُّر الدَّعْوة الإسماعيلية المُبَكِّرة ، وعن مصادر التاريخ الفاطمى ، ثم توَّجت ذلك برسالة دكتوراه دولة تقدَّمتُ بها إلى جامعة السُّربون عنوانها « عَاصِمَة مِصْر فى زَمَنِ الفاطميين (القَاهِرَة والفُسْطاط) مُحَاوَلَة لإعادة تَخْطيطِها » .

وقد أوْضَحْت فى مقدِّمات هذه الكتب أن ما وَصَل إلينا من المؤلَّفات التاريخية التى كُتِبَت فى زمن الفاطميين لا يُمَثِّل إلَّا القليل من هذه المؤلَّفات التى ضاع أغلبها وفُقِد منذ زمنٍ بعيد . ومن حُسْن الحظ فقد حَفَظَ لنا مؤلِّفو عصر سلاطين المماليك المتأخِّرين (وعلى الأخصّ النُّوَيرى وابن الفُرَات وابن دُقْماق والقَلْقَشَنْدى والمَقْريزى وأبو المَحَاسن وابن إياس) فَقَرات مُطَوَّلة وكاملة من هذه المؤلَّفات التى لم نكن لنعرف عنها شيئًا إلَّا بفَضْل هؤلاء المؤلِّفين . فالجَبَرْتى ، فى مطلع القرن التاسع عشر ، يقول : إن المقريزى « نَقَل فى مؤلَّفاته أسماء تواريخ لم نَسْمَع بأسمائها فى غير كتبه مثل تاريخ ابن أبى طَىّ والمُسَبِّحِى وابن المَأمُون وابن زُولَاق والقُضَاعى »[1] .

---

(1) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (بولاق ١٢٩٧) ١ : ٦ .

واعْتَمَدَت كل الدِّراسات المتعلِّقة بتاريخ الفاطميين ونُظُمِهم ورُسُومِهم فى مصر على كتابات هؤلاء المؤرِّخين المتأخِّرين وبعض الكتابات التى وَصَلَت إلينا من العصرين الفاطمى والأيُّوبى كمؤلَّفات ابن الصَّيْرَفى وعُمَارة اليمنى وابن ظَافِر وابن الأثير وابن مُيَسَّر وأبى شَامَة . ولم يحاول الباحثون الذين درسوا نُظُم الفاطميين ورُسُومَهم التعرُّف على مصادر مؤلِّفى عصر سلاطين المماليك التى اعْتَمَدَت عليها هذه الدِّراسات ؛ وعلى الأخصّ القَلْقَشَنْدى والمَقْريزى وأبو المَحَاسن ؛ وتتبُّع أولويات هذه المصادر ومعرفة الفترة التى دُوِّنَت فيها لتحديد العصر الذى يَصْدُق عليه ما أورده هؤلاء المؤلِّفون وخاصة ما يتعلَّق منها بالنُظُم والرُسُوم ؛ فمؤلفو عصر سلاطين المماليك يكتبون عن أحداثٍ تفصلهم عنها ما بين ثلاثة وخمسة قرون . وهكذا جاءَت أغلبُ هذه الدِّراسات بأحكام عامة على تاريخ النُّظُم والرُّسُوم الفاطمية ولم تحاول تتبُّع تَطَوُّر هذه النُّظُم والرُّسُوم على مدى ما ينيف على قرنين من الزمن هما عُمْر الدولة الفاطمية فى مصر . وقد سَبَق أن أشَرْت فى مقدِّمة القسم الخاص بممالك مِصْر والشَّام والحِجَاز واليَمنْ من كتاب « مَسَالِك الأبصَار » لابن فَضْل الله العُمَرى إلى تكرُّر نفس هذا الخطأ عند دراسة نُظُم الدَّولة المماليكية فى مصر ، وأوْضَحتُ أن ما يورده القَلْقَشَنْدى والمَقْريزى والسُّيوطى عن نظام دولة المماليك لا يَصْدُق تمامًا على عصرهم وإنما هو وَصْفٌ لهذه النُّظُم فى زمن دولة المماليك الأولى ، وعلى الأخص فى عهد الناصر محمد ابن قلاوون ، الذى أهدى إليه ابن فَضْل الله العُمَرى كتابه الذى نَقَل عنه هؤلاء المؤلِّفون وَصْفَهم للنُّظُم المماليكية[١] .

وعلى ذلك فإن كتابة تاريخٍ صحيحٍ للدولة الفاطمية ونُظُمها ورُسُومها فى مصر لا يمكن أن يتم ، فى غياب مصادر العصر الفاطمى ، إلاّ بعد التعرُّف على

---

[١] ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - ممالك مصر والشام والحجاز واليمن ، تحقيق أيمن فؤاد سيد (مط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥)٢ م .

هذه المصادر واستخراج نصوصها من كتابات المؤلِّفين المتأخِّرين الذين سَجَّلوا لنا تاريخ الفاطميين فى مصر[١] . وفى الحقيقة فإن تاريخ الفاطميين ، كما سجَّله مؤرِّخو القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، فيما عدا استثناءات ضئيلة ، لا يُمَثِّل رُؤْيَة أو وِجْهَة نَظَر هؤلاء المؤرِّخين فى التاريخ الفاطمى . لأن هؤلاء المؤرِّخين لم يُحَلِّلوا أو يَنْقُدوا معطيات المصادر التى اعتمدوا عليها (وكلها مصادر أصلية ترجع إلى كل عهود التاريخ الفاطمى) وإنما اكتفوا - وحَسَنًا فعلوا - بنقل نصوصها بحرفية وأمانة شديدتين تُمَكِّننا الآن من إعادة بناء هذه المؤلَّفات التى ضاعت أصولُها .

وإذا تتبَّعنا المَقْريزى ؛ وهو المؤلِّف الوحيد الذى اعتنى فى كتابه « الخِطَط » بذكر مصادر معلوماته ، رغم أنه أهمل ذلك فى بقية مؤلفاته[٢] ؛ نجده يعتمد فيما يخص الخمسين عامًا الأولى من تاريخ الفاطميين فى مصر على مؤرِّخَيْن هما : ابن زُولَاق و المُسَبِّحِى ، وفيما يخص تاريخ الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى على كتاب « الذَّخائر والتُّحَف » و « سيرة الوزير اليازورى » و « تاريخ القُضَاعى » بالإضافة إلى بعض المصادر المتأخِّرة وعلى الأخص « تاريخ ابن مُيَسَّر » ، أما فيما يخص تاريخ الفاطميين فى القرن السادس فإنه يعتمد فيه ،

---

[١] يدفعنا ذلك إلى تأكيد أهمية نشر مصادر التاريخ المصرى فى العصر الإسلامى . فكتابة تاريخ تام وصحيح لمصر الإسلامية لا يمكن أن يتم فى غياب النشرات المُحَقَّقة لمصادر هذا التاريخ . فمرحلة التأليف لا تكون إلَّا بعد توَفُّر المصادر الأصلية ودراستها ونشرها . وقد انصرف الباحثون المصريون فى حقل التاريخ الإسلامى عن نشر مصادر هذا التراث ، لأن لجان ترقية أساتذة الجامعة اعتبرت تحقيق النصوص ونَشْرها عملًا من الدرجة الثانية ، رغم أنه الباب الواسع الذى يتعرَّف من خلاله الباحث على المكتبة العربية ويتطلَّب منه معرفةً واطلاعًا واسعًا فى علوم العربية المساعدة لعلم التاريخ .

[٢] راجع ما كتبته عن مصادر المقريزى وأمانته فى النقل أو إهماله لذكر مصادره فى مقدمات « أخبار مصر » للمُسَبِّحى ولابن مُيَسَّر و « مَسَالِك الأبصار » للعُمَرى .

بالإضافة إلى «تاريخ ابن مُيَسَّر» ، على «تاريخ ابن المأمون» و «تاريخ ابن الطُّوَيْر» ومؤلَّفات ابن الصَّيْرِفى و «متجدِّدات القاضى الفاضل» .

و «تاريخ ابن المَأْمُون» هو وكتابا «الذَّخَائر والتُحَف» المجهول المؤلِّف و «نُزْهَة المُقْلَتَيْن فى أخبار الدَّولتين» لابن الطُّوَيْر أهم المصادر التى اعتمد عليها المَقْريزى والقَلْقَشَنْدى وأبو المَحَاسن وهم يصفون النُّظُم والرُّسُوم الفاطمية .

وقد بدَأْتُ منذ عِدَّة سنوات مشروعًا لنشر هذه النصوص الفاطمية المتفرِّقة فى كتابات المؤرِّخين المتأخِّرين ؛ فنشرت فى سنة ١٩٨١ «نصوصًا ضائعة من أخبار مصر للمُسَبِّحى» وفى سنة ١٩٨٣ نصوص ابن المأمون الخاصة بفترة خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البَطَائحى وبوَصْف الرُّسُوم والاحتفالات التى تمَّتْ فى عهد هذا الخليفة ، ووَعَدْت فى مقدِّمة هذا الكتاب أن أُتبعه بنشر نصوص ابن الطُّوَيْر و «الذَّخائر والتُحَف» . وها أنا أفى بوعدى وأُقَدِّم اليوم نصوص ابن الطُّوَيْر الخاصة بتاريخ ونُظُم ورُسُوم الدولة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى .

الكتاب ومؤلِّفه

موضوع الكتاب

يُعَدُّ كتاب «نُزْهَة المُقْلَتَيْن» لابن الطُّوَيْر من المؤلَّفات القليلة التى تناوَلَت موضوع نُظُم الحُكم ورُسُوم دار الخلافة الفاطمية فى مصر ، إن لم يكن هو الكتاب الوحيد الذى تناوَل هذا الموضوع الهام . فالمؤلَّفات الفاطمية التى كُتِبَت فى القرنين الرابع والخامس/ العاشر والحادى عشر ؛ مثل مؤلَّفات ابن زُولَاق والمُسَبِّحِى والقُضَاعى ، تعالج موضوعات تاريخية خالصة وقد تصف مَوَاكِب الخليفة أو مجالسه فى القصر فى سياق عرض الأحداث .

وإذا كُنّا لا نعرف الشيء الكثير عن نُظُم الفاطميين ورُسُومِهم فى الدور الإفريقى[١] ، فإننا نملك فى المقابل أوصافًا تفصيلية للاحتفالات والمواكب الرسمية للخلفاء كما كانت تتم فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى ، دون شك فى أعقاب تَشَكُّل وتَطَوُّر بطىء لتقاليد هذه الاحتفالات ورُسُومها منذ انتقال الفاطميين إلى المشرق . وهذه الأوصاف التى نجدها فى الأساس لدى ثلاثة من مؤلِّفى القرن التاسع / الخامس عشر هم القَلْقَشَنْدى والمَقْريزى وأبو المَحَاسِن تستحق ثقتنا الكاملة لأنها تعتمد على مصادر من الدرجة الأولى ترجع إلى العصر الفاطمى نفسه أو إلى بداية العصر الأيوبى .

ومشكلة أصول هذه الرُّسُوم ، كما يقول ماريوس كانار M. Canard ، غامضة[٢] . فمن المؤكَّد أن الفاطميين - منافسي العبّاسيين - قَلَّدُوا ونَمَّوا وتفوَّقوا على تقاليد الاحتفالات العباسية المستمدة من تقاليد الاحتفالات السَّاسانية . ولا يُسْتَبْعد كذلك أن الفاطميين قد أرادوا محاكاة العديد من الاحتفالات البيزنطية لمنافسة أُبَّهَة وعَظَمة بلاط الإمبراطور البيزنطى كما سبق وفعل دون شك العبَّاسيون . ولكن لا يجب أن ننسى مع ذلك أن الفاطميين هم وَرَثَة الفَرَاعِنَة والبَطَالِمَة فى مصر عَبْر العديد من الأنظمة والحكومات المتتالية ، لذلك فإننا يجب أن نبحث ، على الأقل فيما يخص الاحتفالات الوطنية ، عن أصلٍ محلىّ للعديد من خصوصيات هذه الاحتفالات .

---

(١) راجع عن نظم الحكم فى الدولة الفاطمية فى المغرب Dachraoui, F., *Le califat fatimide au Maghreb 296 - 362 / 908 - 973 - Histoire politique et institutions,* Tunis *STD* 1981, pp. 277 - 422.

(٢) Canard, M., « Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin essai de comparaison », *Byzantion* XXI (1951),.p. 356.

وقد توصَّل M. Canard بمقارنة « كتاب الاحتفالات » لقُسْطَنْطين السابع بورفيروجينيت[1] مع الأوصاف التى أوردها كل من المقريزى والقلقشندى إلى وجود شَبَهٍ أكيدٍ بين نُظُم القصر وأُبَّهة البلاط وشارات الحكم والمواكب والاستقبالات والأعياد المختلفة لكل من الدولتين فى فترة زمنية متقاربة نسبيًا ، إذ أن الرُّسُوم البيزنطية فى القرنين الثالث والرابع / التاسع والعاشر ليست إلَّا استمرارًا لحالة سابقة دامت دون تغيير يُذْكر حتى عصر الحروب الصليبية[2] ، كما أن الرُّسُوم الفاطمية التى بلغت أوج ازدهارها فى القرن السادس / الثانى عشر وُجِدت بالفعل منذ بداية الدولة الفاطمية بشكل أبسَط مما أصبحت عليه فى نهاية الدولة .

والنُظُم والرُّسُوم من أكثر الموضوعات تعرُّضًا للتبديل والتغيير فى الدَّوْلَة الواحدة حتى تصل إلى مرحلة الثبات والاستقرار مع قمة ازدهار الدَّوْلة . وإذا كان « تاريخ ابن المَأمُون » يقدِّم لنا تفاصيل الاحتفالات التى كانت تجرى فى عصر الخليفة الآمر ، وعلى الأخص فى السنوات ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، وما كان يقدَّم فى الأسْمِطَة من أنواع الأَطْعِمَة ، وأنواع الخِلَع والكُسْوات التى كان الخليفة يمنحها لرجال الدولة وأرباب الرُّتب فى هذه الاحتفالات . فإن « تاريخ ابن الطُّوَيْر » يُقَدِّم لنا الوصف الوحيد الذى نملكه لترتيب هذه الأسْمِطَة والاحتفالات الموكبية التى كانت تُقَدَّم فيها هذه الأَطْعِمَة وتُمْنَح فيها هذه الكُسْوات .

* * *

(1) Constantin VII Porphyrogénète, *Le Livre des Cérémonies*, 1 - 2, texte établi et traduit par Albert Vogt, Paris 1935 - 39.

(2) Canard, M., *op ., cit.*, p.356.

والمؤلَّفات الفاطمية السابقة على كتاب ابن الطُّوَيْر فُقِد أغلبها ، مثلما فُقِد كتاب ابن الطُّوَيْر نفسه[١] ، مثل مؤلَّفات ابن زُولَاق والقُضَاعى و « سيرة المُسْتَنْصِر » و « سيرة اليازورى » وبقية كتاب المُسَبِّحِى ... الخ وما وَصَل إلينا من هذه المؤلَّفات هو قسم من « تاريخ المُسَبِّحِى » وكتاب « مَوَاد البيان » لعلىّ ابن خَلَف ومؤلفات ابن الصَّيْرَفى وعُمَارة اليمنى وأُسَامَة بن مُنْقِذ . ولا تُقَدِّم لنا هذه الكتب شيئًا مما يقدِّمه لنا ابن الطُّوَيْر ، فقد انفرد ابن الطُّوَيْر بتقديم وصفٍ تفصيلى وكامل لترتيب الاحتفالات والمواكب التى شهدتها العاصمة المصرية (القاهرة والفُسْطاط) على الأَخصّ فى النصف الأول للقرن السادس / الثانى عشر . وإزاء ضياع كتاب ابن الطُّوَيْر فلا توجد أمامنا سوى طريقة واحدة لتكوين فكرة واقعية عن مضمونه هى دراسة المادة التى حَفظَها لنا منه المؤلِّفون الذين نقلوا أغلب مادته .

*
* *

يقدِّم لنا ابن الطُّوَيْر رواية على جانب كبيرٍ من التفصيل لأحداث النصف الأول من القرن السادس / الثانى عشر حتى استيلاء الأيوبيين على السلطة فى مصر سنة ٥٦٧ / ١٠٧١ ، إلى جانب عرضٍ مَنْهَجى موَسَّع لنُظُم الدولة الفاطمية الزائلة كما يجب أن يعرفها عن طريقه حُكَّام مصر الجُدُد . وهذا هو دون شك معنى عنوان كتابه « نُزْهَة المُقْلَتَيْن فى أخبار الدَّوْلتين » .

والموضوعات التى تناولها كتاب ابن الطُّوَيْر ، كما تبدو من خلال نقول المتأخِّرين منه ، موضوعات ثلاثة هى : « التاريخ » و « النُظُم » و « الرُّسُوم » .

---

[١] راجع مقالى « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبى فهر محمود محمد شاكر . القاهرة ١٩٨٢ ، ١٢٩ - ١٧٩ .

فقد كان كتاب ابن الطُّوَيْر من المصادر التى اعتمد عليها كل من ابن خَلْدُون وابن الفُرَات والمَقْريزى وأبو المَحَاسِن وعلى الأخص فيما يخص «تاريخ الفاطميين المتأخِّرين» وإذا كان بإمكاننا تحديد النصوص التاريخية التى ترجع إليه عند ابن الفرات والمقريزى وأبى المحاسن فإن ذلك لا يتيسَّر مع ابن خلدون . فابن خلدون يذكر أنه نَقَل «أخبار الفاطميين مُلَخَّصَة من كتاب ابن الأثير ومن تاريخ دولتهم لابن الطُّوَيْر وقليل من المُسَبِّحى»[١] . وقد أشار ابن خلدون فى مواضع قليلة إلى النصوص التى استفاد منها من ابن الأثير ، ولكنه لم يشر إطلاقًا إلى ما نقله عن المُسَبِّحى أو ابن الطُّوَيْر .

وقد انفرد ابن الطُّوَيْر بإيراد تفصيلاتٍ تاريخية موسَّعة لا نجدها عند غيره من المؤرِّخين ، أوردها المقريزى فى « الاتعاظ » دون تحديد لمصدرها . ومقارنة هذه المعلومات مع « تاريخ ابن الفرات » الذى نقل بأمانة نصوصًا تاريخية مُطَوَّلة عن ابن الطُّوَيْر ، تُحَدِّد لنا مصدر هذه المعلومات التى أوردها المقريزى فى « الاتعاظ » .

والموضوع الثانى الذى تناوله كتاب ابن الطُّوَيْر هو « النُّظام الإدارى للدولة الفاطمية » وعلى الأخص فى الخمسين عامًا الأخيرة من تاريخها . فهو يشير إلى ترتيب دواوين الدَّوْلة المختلفة وأرْبَاب الوظائف بها وإلى أهم خَزَائن الفاطميين والأَهْرَاء والحَوَاصِل ومن يُشْرِف عليها ورواتبهم والطبقة التى ينتمون إليها : هل هم من أرباب السُّيوف أم من أرباب الأقلام أم من أرباب العمائم ؟ خاصة وقد تولَّى بنفسه رئاسة « ديوان الرَّواتب » قرب نهاية العصر الفاطمى .

أما أهم موضوعات الكتاب التى جعلت منه نصًّا له خطورته بين مصادر التاريخ الفاطمى ، فهو الفصل الخامس الذى تناول فيه « ركوب الخليفة فى المواكب العِظَام » وَوَصَفَ فيه تفصيلًا الاستعدادات لهذه المواكب ، والآلات

---

[١] ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤) ٤ : ٨٢ .

الموكبية المصاحبة لها ، وكيفية ركوب الخليفة ومَنْ يكون فى صحبته وكيفية استقدامهم ، والطريق الذى يَسْلُكُه الموكب فى الذهاب والعَوْد ، إلى غير ذلك من التفصيلات الدقيقة التى انفرد بها ابن الطُّوَيْر ؛ وكذلك الفصل العاشر الذى وَصَف فيه « مَجَالِس الخليفة بالقصر » وقَدَّم لنا فيه تفصيلات غنيَّة عن ترتيب الجلوس فيها وآدابه ومَنْ جرى رسمه بحضورها ، والأَسْمِطَةَ التى كانت تُمَدّ فى قاعة الذَّهَب فى رمضان والعيدين . وقَدَّم لنا فى خلال ذلك وصْفًا دقيقًا لترتيب قاعة الذَّهَب والإيوان الكبير والدَّهاليز الطِّوال التى تقود الداخل من أبواب القصر إلى مختلف قاعاته وإلى فنائه الداخلى ، مما يُعين على إعادة بناء الطبوغرافية الداخلية لجزء من القصر الفاطمى .

مُؤَلِّف الكِتَاب

هو القاضى المُرْتَضَى أبو محمد عبد السَّلام بن الحسن بن عبد السَّلام بن على[1] بن أحمد الفِهْرى القَيْسَرَانى الأصل المصرى المولد والدار ، العَدْل الكاتب المعروف بابن الطُّوَيْر .

وإلى فترة قريبة لم نكن نعرف متى عاش ابن الطُّوَيْر على وجه الدقة ، فلم ترد له أية ترجمة فيما بين أيدينا من كتب التراجم والطبقات المطبوعة حتى نُشِر كتاب « التَّكْمِلَة لوفيات النَّقَلَة » للمُنْذِرى ، وكان البروفيسير كلود كاهن Claude Cahen قد تعرَّف قبل ذلك على شخصية ابن الطُّوَيْر عن طريق الذَّهبى وكتابه « تاريخ الإسلام » ، ويضاف إلى ذلك ترجمة أخرى أوردها الصَّفَدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » . وبذلك تكون أخبار ابن الطُّوَيْر قد وصلت إلينا فى ثلاث تراجم شديدة الاختصار[2] ، لا نعرف منها الشىء الكثير عن نشأته وحياته الأولى سوى أنه وُلِدَ

---

[1] ابن على ، ورد فقط عند المنذرى .

[2] المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ٣ : ٧ - ٨ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، الطبقة الثانية والستون ، ص ٣١٦ ، الصفدى =

فى مصر فى ذى الحجة سنة أربع وعشرين وخمسمائة . وعندما بَلَغ أَشُدَّه انخرط فى الأعمال الديوانية وتقلَّب فى الخدمة فى الدواوين الفاطمية ثم الأيوبية . وكان يتولَّى «ديوان الرَّواتب» قرب نهاية العصر الفاطمى[١] .

وسمع ابن الطُّوَيْر بالإسكندرية من الحافظ أبى الطاهر السِّلَفى ، وكان سِنُّه إذ ذاك يقارب الخمسين عامًا ، أى نحو سنة خمس وسبعين وخمسمائة . وأقام يشْهَد ستين سنة أو زيادة عليها . وكان حافظًا للحديث سمعه منه الحافظ زكىُّ الدين المُنْذِرى ، وتوفى ليلة النصف من المحرم سنة ٦١٧ / ٢٣ مارس سنة ١٢٢٠ وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وسبعة وعشرين يومًا عن ذِهْن حاضر وصِحَّة سَمْع وكتابةٍ جَيِّدة . وكان يسكن فى خُطّ دار الأَنْماط بفسطاط مصر[٢] .

وكان جده ، أبو محمد عبد السَّلام ، أحد العدول بمصر والمقدَّمين بها، كَتَبَ عنه الحافظ أبو الطَّاهر السِّلَفى .

وينتمى ابن الطُّوَيْر إلى نفس طبقة المؤلِّفين الإداريين الذين أُوْكَلَت إليهم الحكومة وظائف الإشراف العُلْيا على الدَّواوين الإدارية فى مصر فى أيام الفاطميين والأيوبيين والتى ينتسب إليها : ابن الصَّيْرَفى والقاضى المرتضى بن المُحَنِّك والمَخْزُومى والنابُلْسى وابن مَمَّاتى والقاضى الفاضل . وكان ابن الطُّوَيْر سُنِّى المذهب مثل المَخْزُومى والقاضى الفاضل وتكوَّن مثلهما فى الإدارة الفاطمية قبل أن يدخل فى خدمة الأيوبيين .

= الوافى بالوفيات ١٨ : ٤١٧ - ٤١٨ وانظر كذلك Cahen, Cl., « Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers Fatimides », *BIFAO* XXXVII (1937), pp. 10 - 14. id., EI^2., art. *Ibn al - Tuwayr* III, p. 985; id., « L'historiographie arabe : des origines au VII° s.H. », *Arabica* XXXIII (1986), p.177 - 178. ، أيمن فؤاد سيد : دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر ١٦٢ .

(١) انظر فيما يلى ص ٧٧ س ٤ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٢ .

وكما تولّى المَخْزُومى «ديوان المَجْلِس» أكثر من مرة فى الدولة الفاطمية[١] ، تولّى ابن الطُّوَيْر كذلك «ديوان الرَّواتب» فى أواخر عصر هذه الدولة[٢] .

وكتب ابن الطُّوَيْر كتابه على الأرجح فى زمن صلاح الدين ، وقَصَد عمل ما يُشْبه المُوازَنة بين نظام الدولة الفاطمية ، الذى خَبِرَه جيدًا ، ونظام الدولة الصَّلاحية ، وهذا ما يُفَسِّر عنوان الكتاب «.... أخبار الدولتين» . ولكن الغريب أننا لا نجد بين النقول التى حُفِظَت عنه أيَّة إشارة إلى نُظُم الدولة الأيوبية ، فكل ما وصل إلينا عنه يتعلّق بالدولة الفاطمية مما جعل المؤرخ أبو المحاسن يصفه بأنه «أَجْدَرُ بأخبار الفاطميين من غيره»[٣] .

ولعل فى تأليف هذا الكتاب فى زمن الأيوبيين وبقائه إلى القرن التاسع/الخامس عشر دليلٌ على أن الأيوبيين لم يعمدوا إلى طَمْس آثار الفاطميين كُلِّيةً ، وأن العصر الأيوبى شهد تأليف كتب تصف أَدَقّ تفاصيل بلاط ودواوين الدولة الفاطمية .

أما عنوان كتاب ابن الطُّوَيْر فلم يُشر إليه إلّا من نقلوا عنه اعتبارًا من نهاية القرن الثامن/الرابع عشر ، وهو يرد أحيانًا باسم «نُزْهَة المُقْلَتَيْن فى أخبار (أو سيرة) الدَّولتين» (ابن الفرات والمقريزى وحاجى خليفة) وأحيانًا أخرى باسم «المُقْلَتَيْن فى أخبار الدولتين» (أبو المحاسن) ، أما ابن خلدون والقلقشندى فلم يذكرا اسم الكتاب إطلاقًا .

---

(١) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر (م . المتحف البريطانى رقم Add. 23483) ورقة ٤٦و ، وهى ليست من القسم الذى نشره كلود كاهن .

(٢) انظر فيما يلى ص ٧٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٥ : ٢٤١ .

نُقُولُ المتأخِّرين مِنَ الكِتاب

ابن خَلْدُون - ابن الفُرَات - ابن الزَيَّات
القَلْقَشَنْدى - المَقْريزى - أبو المَحَاسِن

رغم الأهمية الكبيرة التى يُمَثّلها «تاريخ ابن الطُّوَيْر» لتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر فقد ظَلَّ كتابه غير معروف أو على الأقَلّ غير متداول بين مؤرِّخى دولة المماليك الأولى . فلا يشير إليه ابن مُيَسَّر أو النُوَيْرى أو ابن أَيْبَك الدَّوادارى ، وهم المؤلِّفون الذين سجَّلوا تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر فى عصر دولة المماليك الأولى . ووجود بعض الاتفاق فى سَرْد الأحداث بين هؤلاء المؤرِّخين والنقول المحفوظة عن ابن الطُّوَيْر لدى المؤلِّفين المتأخِّرين ليست دليلًا كافيًا للحكم بأن مؤرِّخى القرنين السابع والثامن قد عرفوا كتاب ابن الطُّوَيْر . ولكن مع نهاية القرن الثامن / الرابع عشر أَخَذ اسم ابن الطُّوَيْر وكتابه «نُزْهة المُقْلَتَيْن» فى الظهور فى مؤلَّفات المؤرِّخين الذين دوَّنوا تاريخ الدولة الفاطمية . وتستمد المعلومات المُتَعَلِّقة بتاريخ الدولة الفاطمية فى كتابات هؤلاء المؤلِّفين المتأخِّرين قيمتها من اعتمادها على المصادر الأصلية لهذه الفترة ، رغم تأخُّر هؤلاء المؤلِّفين النسبى عن عصر الدولة الفاطمية . ويأتى فى مقدمة هؤلاء المؤلِّفين ابن الفُرَات والمَقْريزى والقَلْقَشَنْدى وأبو المَحَاسِن ثم يليهم فى الأهمية ابن خَلْدُون وابن الزَيَّات .

فقد اعتمد ابن الفُرَات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ / ١٤٠٤) فى تأريخه للفاطميين المتأخِّرين على مصادر متنوعة فُقِد أغلبها اليوم ، وعلى الأخصّ تاريخ ابن الطُّوَيْر وتاريخ يحيى بن أبى طىّ (بالإضافة إلى تاريخ ابن الأثير وتاريخ بيبرس الدَّوادار وتاريخ ابن خَلِّكان) . ورغم أن هذه المصادر قد استخدمها كذلك مؤرِّخون آخرون فإن نَقْل ابن الفرات عنها فى مجموعه يتَّسم بالأمانة الشديدة . فعن طريق هؤلاء المؤلِّفين تَتَبَّع ابن الفرات

فى كتابه «تاريخ الدُّوَل والملوك» أخبار الدولة الفاطمية فى مصر فى النصف الأول للقرن السادس / الثانى عشر ، ونَقَل عن ابن الطُّوَيْر وابن أبى طىّ نصوصًا عظيمة القيمة استمد منها أصل معارفه عن العصر الفاطمى الثانى . كذلك فقد نقل ابن الفرات عن ابن الطُّوَيْر الفصل الذى عقده بعد أن ذكر سقوط دولتهم وأورد فيه تلخيصًا شاملًا للنُظُم الفاطمية ، وقد نقل أيضًا المقريزى هذا الفصل عن ابن الطُّوَيْر فى «الخِطَط» و «اتعاظ الحُنَفَا»[1] .

وترجع أقدم نقول ابن الفرات التاريخية عن ابن الطُّوَيْر إلى قرب نهاية وزارة الأَفْضَل بن بَدْر الجَمَالِى ، وتستمر باطراد إلى أثناء تَوَصُّل رِضْوان بن وَلَخْشِى إلى تَوَلّى الوزارة سنة ٥٣١ / ١١٣٦ . ثم ينتاب نص ابن الفرات ، فيما يخص تاريخ مصر ، نَقْصٌ شديد فى حوادث السنوات التالية لهذه السنة ، ثم يعود ابن الفرات لينقل عن ابن الطُّوَيْر بعض الأخبار الخاصة بوزارة العادل ابن السَّلار ومقتل الخليفة الظّافر وتولية الخليفة الفائز ووصول الوزير الصَّالح طلائع ابن رُزِّيك إلى قمة السلطة ، وهى تمتاز بتفصيلات لا نجدها فى مصادر تاريخ الفاطميين المتأخرين الأخرى سوى من نَقَل عن ابن الطُّوَيْر .

أما بداية التدخُّلات الأجنبية فى شئون مصر ، والتى حدثت بعد تولى شاور للوزارة وأدَّت سريعًا إلى سقوط الفاطميين وعودة مصر إلى قلب العالم الإسلامى السُّنّى ، فقد نَقَلَها ابن الفرات من «جزء لطيف مجهول المؤلِّف سمَّاه مؤلِّفه أخبار الدَّوْلة المصرية وما جرى بين الملوك والخلفاء من الفِتَن والحروب من أيَّام الآمر إلى أيَّام شيركوه» ، وقد نَقَل المقريزى هذا الجزء مُلَخَّصًا فى الخِطَط [٢ : ١٢-١٣] ونصًّا فى الاتعاظ [٣ : ٢٦٤-٢٧١] سواء بطريق مباشر أو بطريق

---

[1] ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ٤ / ١ : ١٣٥-١٥١ والمقريزى : الخطط ١ : ٣٩٧ - ٤٠٤ و اتعاظ الحنفا ٣ : ٣٣٥-٣٤٤ .

غير مباشر[١] ، وأغلب الظن أن المقريزى أخذ هذا النص من ابن الفرات ، فقد اطَّلَع المقريزى على نسخة تاريخ ابن الفرات المحفوظة فى مكتبة فِيِنَّا وعليها خَطُّه وتوقيعه[٢] .

ورغم أن ابن الفرات وأبا المحاسن والمقريزى لا يشيرون إلى ابن الطُّوَيْر فيما يخص فترة خلافة الخليفة العاضد فإن هناك من الشواهد ما يجعلنا نظن أنهم يَتْبَعون تاريخه أيضًا بالنسبة لهذه الفترة وعلى الأقل حتى عام ٥٦٤ / ١١٦٨ . فهناك اتفاق فى طريقة سرد أحداث هذه الفترة بين ابن الفرات والمقريزى وأبى المحاسن وحتى ابن خلدون .

واعتمد ابن خَلْدون وهو يُجْمل أخبار الدولة الفاطمية فى مصر على كتب ثلاثة أساسية هى : تاريخ المُسَبِّحى للفترة الأولى وتاريخا ابن الأثير وابن الطُّوَيْر لبقية التاريخ الفاطمى[٣] . ورغم أن ابن خلدون قد حدَّد المواضع التى استفاد فيها من ابن الأثير ، فإنه لم يشر بوضوح إلى مواضع اقتباساته من المُسَبِّحى أو ابن الطُّوَيْر ، واكتفى بتلخيص هذه الأخبار بإيجاز شديد بَلَغ حَدّ الإخلال .

ونَقَل ابن الزَّيَّات (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصارى المتوفى سنة ٨١٤ / ١٤١١) صاحب كتاب « الكواكب السيَّارة فى ترتيب الزيارة » عن ابن الطُّوَيْر فى موضعين : ذكر فى الأول أن ابن الطُّوَيْر صَحَّح نَسَب الفاطميين فى كتابه[٤] ، وأورد فى الثانى القصة التالية المنسوبة للخليفة الآمر :

---

(١) ونشره كلود كاهن Cahen, Cl., « Un récit inédit du vizirat de Dirghâm », *An. Isl.* VIII (1969), pp. 27 - 46 .

(٢) ابن الفرات : تاريخ ٧ : ٩٥ ظ — ٩٦و الموافقة لصفحة ١٥١ من المطبوع .

(٣) ابن خلدون : العبر ٤ : ٨٢ .

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ١٧٦ .

« قال ابن الطُّوَيْر : خرج الآمر ليلة فَمَرَّ ببيتٍ فسمع امرأة تقول لبَعْلِها : والله ما أُضاجعك ولو جاء الآمر ومعه ثلاثون دينارًا . فلما سمع الآمر كلامها أرسل الخادم إلى القصر فجاء بمائة دينار وطَرَق الباب على الرجل ففتح ، ودَخَل الآمر وقال لزوجة الرجل : خذى هذه مائة دينار بدل الثلاثين وضاجعى زوجك وأنا الآمر »[1] .

أما أهم النصوص التى مَكَّنَتْنا من إعادة بناء تاريخ ابن الطُّوَيْر ودراسته فتلك النصوص الكاملة والمطوَّلة التى حَفظَها لنا مؤرِّخو القرن التاسع/ الخامس عشر : القَلْقَشَنْدى والمَقْريزى وأبو المَحَاسِن والتى تأتى على رأسها النصوص التى حَفظَها لنا المقريزى فى « الخِطَط » .

وكل هذه النصوص ، باستثناء بعض النصوص التاريخية التى أوردها المقريزى وأبو المحاسن ، تختص بوصف نُظُم ورُسُوم الفاطميين قبل سقوط دولتهم فى أواسط القرن السادس . بل هى النصوص الوحيدة التى تَصِفُ لنا التفاصيل الدقيقة للمواكب الاحتفالية للخلفاء الفاطميين وترتيب مجالسهم وأسْمِطَتِهم التى كانت تُمَدّ فى المناسبات والمواسم المختلفة .

فقد نَقَلَ المقريزى فى « الخِطَط » الفصل الخامس من كتاب ابن الطُّوَيْر الخاص « بركوب الفاطميين فى المواكب العِظام » بتمامه موزَّعًا على الفصل الذى عَقَدَه عن القاهرة فى زمن الفاطميين ، كما نَقَلَ كذلك القسم الأكبر من الفصل العاشر الذى خصَّصه ابن الطُّوَيْر لذكر هيئة الفاطميين فى الجلوس العام . وعن طريق ما حَفظَه المقريزى عَرَفْنا أن كتاب ابن الطُّوَيْر كان يتكوَّن من فصولٍ ربَّما تجاوزت العشرة . كما أن أَغْلَب المادة التى سجَّلها المقريزى عن دواوين الدولة الفاطمية وترتيب وظائفها وعن خزائن الفاطميين وحَوَاصِلهم وأهْرَاءاتهم نقلها كذلك عن ابن الطُّوَيْر .

---

[1] ابن الزيات : الكواكب السيارة ١٧٧ .

أما القَلْقَشَنْدى فقد وزَّع الكثير من مواد كتاب ابن الطُّوَيْر على امتداد الفصل الذى عقده «لذكر ترتيب المملكة فى زمن الخلفاء الفاطميين» فى كتابه «صُبْح الأعشى»[1] . ولم يُلْزِم القلقشندى نفسه بنقل نصوص ابن الطُّوَيْر بترتيبها بل استخلص منها مواد تصلح للترتيب الذى ارتضاه لكتابه . فالآلات الموكبية التى أفردها فى الجزء الثالث بين صفحتى ٤٦٨-٤٧١ استخرجها من الفصل الذى عقده ابن الطُّوَيْر لوصف الاستعدادات الخاصة بموكب أوَّل العام ، وهو الموكب النموذجى بين المواكب الفاطمية من حيث دِقَّة التفصيلات وغناها فى نص ابن الطُّوَيْر . وفَعَل القلقشندى الشىء نفسه وهو يذكر وظائف الأستاذين المُحَنَّكين وغير المُحَنَّكين حيث استخلصها من خلال ذِكْر ابن الطُّوَيْر لمن جرى رسمه بمصاحبة الخليفة فى هذه المواكب أو فى حضور مجالسه . وعلى ذلك فإن كل المادة الموجودة عند القلقشندى عن الرُّسُوم والدَّواوين الفاطمية تُمَثِّل ما كانت عليه هذه الرُّسُوم والدَّواوين قرب نهاية دولتهم فى النصف الأول للقرن السادس/ الثانى عشر .

ورغم حِرْص أبى المَحَاسن صاحب « النُّجُوم الزَّاهِرَة » على تسجيل مصادر معلوماته بدِقَّة فإنه نَقَل الفصل المتعلِّق بوصف ركوب الخلفاء فى المواكب العظام وأسْمِطَة الطَّعام التى كانت تُمَدّ فى شهر رمضان والعيدين [النجوم ٤ : ٧٩-١٠٢] عن ابن الطُّوَيْر دون أن يشير إليه ، وأورد هذا الوصف فى آخر ترجمة الخليفة المعز لدين الله وبدأه بالعبارة التالية : «والمعز هذا هو الذى استَسَنَّ ذلك كله» [النجوم ٤ :٧٩] . وبذلك أوْقع أبو المحاسن الباحثين الذين اعتمدوا عليه فى خطأ كبير حيث ظنَّ هؤلاء الباحثون أن ترتيب هذه الاحتفالات الموكبية

---

[1] القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (القاهرة - دار الكتب المصرية) ٣ : ٤٦٨-٥٢٨ .

استقرَّ على هذه الهيئة منذ زمن المعز أوَّل خلفائهم فى مصر[١] . وهو خطأ فادح ، لأن هذه النُّظُم والرُّسُوم مرَّت بسلسلة طويلة من التبديل والتغيير حتى استقرَّت على الشكل الذى يقدِّمه لنا ابن الطُّوَيْر فى أواسط القرن السادس .

*
* *

ومما تقدَّم يتَّضح لنا أن «تاريخ ابن الطُّوَيْر» ليس كتابًا مجهولًا تمامًا لنا ، فقد نُشِر القسم الأكبر من نصوصه التى نقلها المقريزى والقلقشندى وأبو المحاسن ، إلَّا أنه برغم معرفة هذه النصوص (وبعضها معروف منذ أكثر من مائة عام) فإن الدراسات الخاصة بالفاطميين لم تستفد منها الاستفادة الحَقَّة[٢] بل إن بعض هذه الدراسات لم تلتفت إلى هذه النصوص لتفرُّقها فى هذه المصادر المختلفة ، وأصْدَرَت بذلك أحكامًا عامة على تاريخ الفاطميين ، رغم أن المعلومات التى يوردها كل من القلقشندى والمقريزى وأبو المحاسن لا تَصْدُق إلَّا على فترة قصيرة من تاريخ الفاطميين الطويل . فالكتب والدراسات التى تناولت تاريخ الفاطميين ، أيًّا كانت قيمتها ، مُخَيِّبة للآمال فى مجملها فيما يخص التنظيمات الإدارية والرُّسُوم والاحتفالات بسبب نَقْص المصادر ، لذلك فإنها كثيرًا ما تُقْحِم ، دون تمييز ، مصادر أيوبية ربما تكون صالحة من خلال استعادتها للأنظمة السابقة ، ولكن دون أن تكون لها نفس قيمة المصادر المعاصرة .

ولا شك أن هناك عناصر استمرارية بين النظامين الفاطمى والأيوبى نجدها حتى عند المماليك ، ولكن التغيير كان ، دون شك ، قويًا وسريعًا فى نفس الوقت فى القسم الأكبر من النُّظُم والوظائف الإدارية .

---

(١) ماجد ، عبد المنعم : «أصل حفلات الفاطميين فى مصر» ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد (١٩٥٤) ، ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) فيما عدا دراستى إنسترونـزف و ماريوس كانار عن «الاحتفال بركوب أول العام عند الفاطميين» .

وعلى ذلك فإن تجميع هذه النصوص ونَشْرها نشرًا علميًا اعتمادًا على مخطوطات جديدة ، من شأنه أن يصوِّب الكثير من الأخطاء التى وقعت فى نشرة كتاب «الخِطَط» السَّقيمة وخاصة فيما يتعلَّق بالمصطلحات وأسماء المواضع ، ومن شأنه كذلك أن يساعدنا على إعادة دراسة تاريخ هذه الفترة اعتمادًا على هذه المصادر المعاصرة دون الخلط بينها وبين المصادر المختلفة الأخرى ، مما يعيننا على رسم لَوْحَة صادقة لما كانت عليه النُّظُم والرُّسُوم فى فترات التاريخ الفاطمى المختلفة وكذلك للحوادث التاريخية كما تظهر فى كتابات هؤلاء المؤرِّخين المعاصرين .

طَريقَتى فى إخرَاج النصّ

كان علىَّ وأنا أعد هذه النشرة أن أجْمَع كل النصوص التى نَسَبَها المؤرِّخون اللاحقون إلى ابن الطُّوَيْر ، وكذلك النصوص التى أظن أنها نُقِلَت عن ابن الطُّوَيْر ، فكثيرًا ما أغْفَل المؤرِّخون المتأخِّرون أسماء المؤلِّفين الذين نقلوا عنهم (مثلما فعل المقريزى فى «اتعاظ الحنفا» و «المُقَفَّى» ، وابن الفرات فى بعض المواضع) . وبعد ذلك صنَّفْت هذه النصوص تبعًا للموضوعات الثلاثة الرئيسية التى أظن أن تاريخ ابن الطُّوَيْر كان يحويها وهى : التاريخ ، والنُّظُم ، والرُّسُوم . والقسم الأكبر من المادة التاريخية لم يُنْشر بتمامه وهو يقدِّم لنا معلومات جديدة عن تاريخ الفاطميين فى القرن السادس / الثانى عشر ، وقد نَقَلْته من «تاريخ الدُّوَل والملوك» لابن الفُرَات (ويقدِّم لنا هذا الكتاب هو والجزء السادس والعشرين من مخطوطة «نهاية الأرب» للنُّوَيْرى وكذلك مخطوطة «المُقَفَّى الكبير» للمقريزى معلومات جديدة عن الفاطميين) ، وتبيَّن لى أن المقريزى اعتمد عليه جزئيًا فى الجزء الثالث من «اتِّعاظ الحُنَفا» وإن لم يُشر صراحة

إلى ابن الطُّوَيْر سوى فى مَوْضِعٍ واحد[١] ، كذلك نقل المقريزى فقرات كاملة عن ابن الطُّوَيْر فى « المُقَفَّى الكبير » دون الإشارة إلى مصدرها (سواء فى نسخة السليمية أو نسخة باريس أو نسخة ليدن وهى تُكْمِل بعضها بعضًا ، والنسختان الأخيرتان بخط المقريزى) . أما أبو المحاسن فقد نقل فى « النجوم الزاهرة » نصوصًا تاريخية مطوَّلة عن ابن الطُّوَيْر ، بينما لَخَّص ابن خلدون بطريقة مُخِلَّة ما نقله عن ابن الطُّوَيْر .

واعتمدت فيما نقلته عن تاريخ ابن الفرات على نسخة مكتبة ڤِينًا رقم ٨١٤[٢] وهى نسخة فريدة بخط مؤلِّفها تقع فى تسع مجلدات تضم حوادث السنوات من ٥٠١ إلى ٧٩٩ يتخلَّلها سَقْطٌ كبير بعد المجلد الخامس أضاع حوادث السنوات من ٦٢٥ إلى ٦٥٩ (يمكن الاستعاضة عنه بمجلد مكتبة الفاتيكان رقم ٧٢٦ الذى يُظنّ أنه قسمٌ من المجلد الساقط من مخطوطة ڤِينًا)[٣] ، وسَقْطٌ آخر بعد المجلد الثامن أضاع حوادث السنوات من ٦٩٧ إلى ٧٨٨[٤] . ولم يُنْشر من هذا الكتاب الهام سوى

---

(١) المقريزى : اتعاظ ٣ :١١٢ بالإضافة إلى موضعين فى الجزء الأول ص ١١٣ و ٢٣٥ تعود إلى عصر المعز ولكنها ليست دليلًا كافيًا على أن ابن الطُّوَيْر قد كتب تاريخًا كاملًا للفاطميين .

(٢) Flügel, G., *Die arabischen, persischen und türkischen Handschriften der Kaiserlich - Königlichen Hofbibliothek zu Wien*, Wien 1865 - 67, Ba-II,p. 46-49. ومن هذه المخطوطة نسخة مصورة على الفوتوستات بالمكتبة التيمورية برقم ٢١١٠ تاريخ ، وأخرى بدار الكتب المصرية برقم ٣١٩٧ تاريخ ، ونسخة على الميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ١١٤ تاريخ و ٩٥٤ تاريخ .

(٣) درس لسترنج هذا المجلد فى مقاله Le Strange, G., « The Story of the Death of the Last Abbasid Caliph, from the Vatican MS. of Ibn al - Furât », *JRAS* (1900), pp.293 - 300.

(٤) توجد مجلدات ساقطة من مخطوطة فينا موزَّعة على المكتبة الأهلية فى باريس برقم ١٥٩٥ ، ٥٩٩٠ وفى المتحف البريطانى برقم ٣٠٠٧ .

وقد توفر البروفيسير كلود كاهـن على دراسة الأجزاء الأولى من تاريخ ابن الفرات للتعرف على مصادره بالنسبة للفترة التى تبدأ من سنة ٥٠١ وحتى ٦٢٤ وخرج بنتائج هامة راجـع ، Cahen, Cl., *Quelques chroniques anciennes* pp. 10 - 14, 17 - 22; id., *La Syrie du Nord à l'époque du Croisades*, Paris 1940, pp. 55 - 57; id., *CR de l'Académie des Inscriptions et des Belles - Lettres* (1935), pp.258 - 269; id., *EI²*., art. *Ibn al - Furât*, p.792 وأغلبها عن المؤرخ الشيعى ابن أبى طَىّ كمصدر لابن الفرات . وبالنسبة للفترة =

الجزء الرابع وقسم من الجزء الخامس[١] والأجزاء من السابع إلى التاسع[٢] تبدأ بحوادث سنة ٥٦٣ وتنتهى بنهاية الكتاب .

أما النصوص المتعلّقة بالنُّظُم والرُّسُوم فقد نقلها المقريزى فى « الخِطَط » بتمامها وأثْبَتَها بتصرُّف القلقشندى فى « صُبْح الأعْشَىٰ » وأبو المحاسن فى « النجوم الزاهرة » . وهنا تقيَّدت بنص كتاب « الخِطَط » مع الإشارة إلى الاختلافات بينه وبين « النجوم » و « صبح الأعشى » فى الهامش .

وكتاب « الخِطَط » أو « المَوَاعِظُ والاعْتِبارُ بِذِكْرِ الخِطَطِ والآثار » للمَقْريزى نُشِر فى بولاق منذ أكثر من قرن وربع القرن نشرة لا تستحق دائمًا ثقة كاملة ، فنحن لا نعرف الأصل الذى اعتمدت عليه (مثل بقية الكتب التى أخرجتها مطبعة بولاق القديمة) وجاءت مليئة بالأخطاء والتصحيف والسَّقْط ، رغم أن لهذا الكتاب عددًا كبيرًا من المخطوطات تعدَّت المائة وسبعين مخطوطة (كما أحصاها فييت) ، وهو ما يُثبت الأهمية الكبرى التى منحها

= التالية راجع ، Ashtor, E., « Some unpublished Sources for the Bahri Period », *Studies in Islamic History and Civilization*. Edited by Uriel Heyd. (« Scripta Hierosolymitana », vol. IX). Jerusalem : Hebrew University 1961, pp.14 - 15; Little, D.P., *An Introduction to Mamluk Historiography*, Wiesbaden 1970, pp.73 - 75 ثم أحمد الشامى : دراسة فى مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ، القاهرة ١٩٨٣ وهو لم يطّلع على هذه الدراسات السابقة .

(١) نشره حسن الشمّاع فى مجلدين فى البصرة سنة ١٩٦٧ – ١٩٦٩ والمجلد الأول من الجزء الخامس فى سنة ١٩٧٠ . وهذه النشرة لا يمكن الاعتماد عليها لما بها من أخطاء وتصحيف وسقط ولم يطّلع صاحبها على الدراسات المذكورة فى الهامش السابق والتى كان من شأنها أن توضّح له الكثير من الأمور التى التبست عليه ، والغريب أنه مشتغل بالأدب وأراد استخراج مواد أدبية من تاريخ ابن الفرات ولم يهتم بدراسة المادة التاريخية وهى أساس الكتاب .

(٢) نشرتها الجامعة الأمريكية ببيروت ، المجلد التاسع فى جزأين : الأول سنة ١٩٣٦ بتحقيق قسطنطين زريق والثانى فى سنة ١٩٣٨ بالإشتراك مع نجلاء عز الدين وكذلك الثامن فى سنة ١٩٣٩ وانفرد بنشر السابع فى سنة ١٩٤٢ .

المؤلِّفون والكُتَّاب العرب لهذا الكتاب الذى يُعَدُّ بحقٍ أهم وأشمل كتاب فى تاريخ وطبوغرافية مصر الإسلامية . وهذا ما دفع العالم الفرنسى الراحل جاستون فييت G. Wiet ، وهو من أعلم الناس بتاريخ مصر الإسلامية ، إلى بدء مشروعٍ طويل لنشر هذا الكتاب الهام بأسلوب علمى . فأصدر جزءَه الأول فى سنة ١٩١١ ولكنه توقَّف بعد أن أصدر الجزء الخامس فى سنة ١٩٢٧ ، وهو لم يبلغ نصف الجزء الأول من طبعة بولاق ، أمام كثرة مخطوطات الكتاب ووجد أن إخراجه يحتاج إلى تضافر جهود فريق من المتخصِّصين فى تاريخ مصر الإسلامية[1] .

والواقع أن فييت قد عَنَّى نفسه كثيرًا بإثبات فروق نسخ واختلاف قراءات لا طائل من ورائها ، وكان عليه أمام هذا الكَمّ الهائل من مخطوطات الكتاب أن يختار أقدم هذه المخطوطات وأكملها ، أو ما له ميزة خاصة من بينها ليقابل عليها ، خاصة وأن الفروق بين هذه النسخ (فيما عدا أخطاء النُسَّاخ الكثيرة) غير كبيرة ولكنها تصوِّب الكثير من أخطاء طبعة بولاق وتسدّ الكثير من السَّقْط الذى تخلَّلها ، فالمخطوطة التى اعتمدت عليها طبعة بولاق من أكثر مخطوطات الكتاب تصحيفًا وتحريفًا وسَقْطًا .

وكان مما سهَّل مُهِمَّتى أننى وَقَفْت على مُسَوَّدَة «الخِطَط» التى كتبها المقريزى بخَطِّه ، وهى محفوظة فى استامبول وتختلف فى ترتيبها ومنهجها عن الشكل النهائىّ الذى وَصَل إلينا «للخِطَط . وهى مخطوطة ذات قيمة كبيرة

---

(1) *MIFAO* t.XXX (1911), t. XXXIII (1913), t. XLVI (1922), t.XLIX (1923 - 24), t.LIII (1927). كما أخرج المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة فهرسًا للخطط والانتصار لابن دقماق وضعه أحمد عبد المجيد هريدى صدر منه ثلاثة أجزاء (١٩٨٣ - ١٩٨٤) جاء به جميع التصحيفات الواردة فى طبعة بولاق ولكنه يقدّم رغم ذلك خدمة كبيرة للباحثين .

لأنها تفيدنا فى التعرُّف على أسلوب القدماء فى التأليف(١) . وقد أثْبَت فيها المقريزى مصادر اقتباساته التى تخفَّف منها فى الصورة النهائية للخِطَط بدِقَّة ، ونَقَل النصوص بتمامها بينما قَسَّمها ووزَّعها على فصول كتابه فى الصورة التى وصلت إلينا ، مما ساعدنى على إثبات نصوص مطوَّلة نقلها عن ابن الطُّوَير جاءت مفرَّقة فى الشكل النهائىّ « للخِطَط » ، وعندما كان نَصُّ « الخِطَط » يختلف مع نص المُسَوَّدَة كنت أُثْبِت نص المُسَوَّدة وأشير فى الهامش إلى الاختلاف بينه وبين نص « الخِطَط » الذى وصل إلينا .

وبالنسبة للنصوص التى لم ترد فى المُسَوَّدة ، فقد قابلتها على نسختين للخِطَط اعتبرتهما من أقدم وأصَحّ مخطوطات الكتاب هما : مخطوطة مكتبة ميونخ رقم ١١٦ ، ومخطوطة مكتبة ليدن رقم ٣٧٢(٢) ، وأشرت فى الهامش إلى الخلاف بينهما وبين طبعة بولاق ، وكذلك نصوص « النجوم الزاهرة » و « صبح الأعشى » . وقد تمكَّنت عن طريق هذه النسخ الثلاث (استامبول وميونخ وليدن) من تصويب واستكمال الكثير من أخطاء وسَقْط طبعة بولاق .

ولم يتعدّ نصيب ابن الطُّوَيْر فى نشرة فييت نَصَّين أُحَلْت إليهما فى موضعهما . وجعلت جميع إحالات الكتاب إلى طبعة بولاق ، ولم ألتفت إلى أية طبعة أخرى للخِطَط ، لأنها الطبعة التى اعتمد عليها الباحثون الذين درسوا تاريخ مصر وطبوغرافيتها وأحالوا إلى صفحاتها فى حواشيهم طوال قرن من الزمان ، رغم ما بها من عيوب ونَقْص .

أما نَشْرَتَىْ كتاب « صُبْح الأَعْشَىٰ » للقَلْقَشَنْدى و « النُّجُوم الزَّاهِرة » لأبى المحاسن بن تَغْرى بِرْدى فنشرة تستحق كامل ثقتنا أخرجها القسم الأدبى بدار

---

(١) انظر مقـــالى Fu'àd Sayyid, A., « Remarques sur la composition des Ḫitat de Maqrîzî d'après un manuscrit autographe », *Hommage à Serge Sauneron*, Le Caire, *IFAO* 1979, pp. 231 - 258.

(٢) منها صورة على الميكروفلم فى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ١٢٧٣ تاريخ .

الكتب المصرية فى أوائل هذا القرن ، وأشْرَف عليها علماء أجِلَّاء ، وقوبلت على عددٍ من المخطوطات المعتبرة ، وشُرِحَت مصطلحاتها ، وعُرِّف بمواضعها ، وضُبِطَت ضَبْطًا كاملًا ، وصُنِعَت لها فهارس دقيقة (وعلى الأخص النجوم الزَّاهرة) . إلَّا أنه عندما كانت تختلف نصوص القلقشندى وأبى المحاسن مع نصوص المقريزى كنت أُثْبت نص المقريزى ، خاصَّة إذا كان فى المُسَوَّدة ، لأن نَقْلَه جاء كاملًا بينما تَصرَّف القلقشندى وأبو المحاسن فى إثبات هذه النصوص واختصروها . وقد أَشَرْت إلى مواضع الخلاف الظاهرة بين هذه الكتب فى الهامش . هذا فيما يخصُّ ضَبْط النص وتوثيقه .

أما « عَمَلى فى الكتاب » فتمثَّل فى مقابلة الأحداث التاريخية مع نظائرها فى كتب التاريخ الأخرى والإشارة إلى الاختلافات بينها ، خاصة وأن الفترة التى يتناولها « تاريخ ابن الطُّوَيْر » من أكثر فترات التاريخ الفاطمى غناءً وتنوُّعًا فى المصادر وتفصيلًا للأحداث . فبقدر قِلَّة المصادر التى تروى لنا تاريخ مصر فى العصر الفاطمى الأول ، والتى لا تخرج عن مؤلَّفات ابن زُولاق والمُسَبِّحى ويحيى بن سعيد الأنطاكى وعلى بن رضوان الطبيب والقُضَاعى و « سيرة اليازورى » وكتاب « الذَّخائر والتُّحَف » ومؤلفات ابن الصَّيْرَفى ، فإن العصر الفاطمى الثانى غَنِىٌّ بالمصادر المتنوِّعة والوثائق الرسمية متمثِّلة فى مؤلَّفات أُسَامَة ابن مُنْقِذ وعُمَارة اليمنى وابن المأمون والمرتضى بن المُحَنَّك والمَخْزُومى وابن أبى طىّ والشريف الجَوَّانى وأبى شَامَة وابن ظافر الأزدى وابن الأثير وابن مُيَسَّر ، بالإضافة إلى المؤلَّفات المتأخِّره التى اعتمدت على هذه الكتب ، التى فُقِد أغلبها ، مثل مؤلفات ابن سعيد المغربى وابن خَلِّكان والنُّوَيْرى وابن أَيْبَك وابن الفُرَات والقلقشندى والمقريزى وأبى المحاسن وابن إيَّاس .

وحَقَّقْت أسماء الأعلام وحدَّدت المواضع وشَرَحت المصطلحات وعَرَّفت بها اعتمادًا على المصادر الأصلية والدراسات الحديثة . وجَعَلْت هَوَامِش الكتاب فى قسمين : قسمٍ لاختلاف القراءات وفروق النُّسَخ ، وقسمٍ للتعليقات والشروح أكثرت فيه من الإحالة إلى المصادر والدراسات المتخصِّصَة .

ولما كان نصُّ ابن الطُّوَيْر يُقدِّم لنا ، فيما يخص المواكب الاحتفالية ومجالس الخلفاء ووَصْف الأسْمِطَة ، وَصْفًا نموذجيًا لما يجب أن يكون عليه الموكب أو المجلس أو السِّماط (ويبدو هذا أكثر وضوحًا فيما يخص الاحتفال بركوب أوَّل العام) فقد تتبَّعتُ المصادر للوقوف على كيفية الاحتفال عمليًا بهذه الاحتفالات ، و لم أجد مَنْ وَصَفَها سوى مؤرِّخَيْن : المُسَبِّحى فيما يخص الخمسين عامًا الأولى لتاريخ الفاطميين فى مصر ، وابن المأمون بالنسبة للاحتفالات التى تمَّت فى زمن الخليفة الآمر ووزارة المأمون البَطَائحى فى السنوات ٥١٦ و ٥١٧ و ٥١٨ ، فقد عادت الدولة الفاطمية للاحتفال بهذه المناسبات فى عام ٥١٦ بعد انقطاع طويل بسبب السياسة الاستبدادية للوزير الأَفْضَل بن بَدْر الجمالى[١] . كذلك أورد ابن مُيَسَّر والنُّوَيْرى وَصْفًا لمجلس الوزير وهيئته فى السلام على الخليفة[٢] ، والوزير المعنيّ هنا هو أيضًا الوزير المأمون البطائحى .

وقد تخلَّل وَصْف هذه المواكب والمجالس ذكرُ الكثير من المصطلحات النوعية كالملابس والآلات والأطعمة وألقاب الموظفين ، بالإضافة إلى ذكر الكثير من مواضع القاهرة والفسطاط الواقعة على الطريق الذى كان يسلكه الموكب فى الذَّهاب والعَوْد . وقد حَرَصت على شرح هذه المصطلحات وتحديد هذه المواضع بما يقابلها اليوم .

وفيما يخص ذكر الدَّواوين والنِّظام الإدارى بصفة عامة وكذلك وَصْف الطبوغرافية الداخلية للقصر الفاطمى ، فقد وَجَدْت أننى سأُثقِل الهوامش بتعليقات

---

[١] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٣ . [٢] ابن ميسر : أخبار ٨٨-٩٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٥-٨٦ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٢ .

قد تُعْطى صورة غير واضحة عن تطوُّر هذه الدَّواوين ، وعن الوصف المعمارى لقاعات القصر . فاسْتَعَضْت عن ذلك بمقدِّمة دَرَسْت فيها ، بتركيز غير مُخِلّ ، الإدارة الفاطمية وتطوُّر الدَّواوين كما ذكرها ابن الطُّوَيْر واعتمادًا على المصادر المعاصرة والقريبة العهد من الفاطميين مثل : المُسَبِّحى وابن الصَّيْرَفى والنابُلْسى وابن مَمَّاتى وأبو صالح الأرْمَنّى وساويرس بن المُقَفّع وابن مُيَسَّر بالإضافة إلى القلقشندى والمقريزى ، وكذلك الدراسات الحديثة وخاصة ما كتبه Gatschalk و Cl. Cahen . أما الوصف المعمارى لقاعة الذَّهَب ، حيث كان يُعْقَد المَجْلِس ، والإيوان والسِّهْدِلّا والشُّبَّاك فقد اسْتَكْمَلْت صورته من أوصاف ابن الطُّوَيْر وغُلْيوم أسْقُف صور والمقريزى مقارنة بنتائج الحفريات الحديثة التى تمَّت فى الفُسْطَاط وفى موضع القصر الغربى .

وألْحَقْت بالكتاب عددًا من «المَلَاحِق» تتضمَّن نُسَخَ كتب البشارة بالسَّلامة بركوب الخليفة فى الاحتفالات الموكبية المختلفة أوردها القلقشندى والمقريزى ، وأغلب هذه الكتب من إنشاء ابن الصَّيْرَفى مما يدل على أنها صادرة فى العقود الأولى للقرن السادس/ الثانى عشر .

وأوَّل كتاب ذكرته فى المَلَاحِق ورد فى «رَسَائِل العَمِيدى» ، أبو سَعْد محمد بن أحمد بن محمد متولّى ديوان التَّرتيب ثم ديوان الإنشاء فى أيام المستنصر بالله عِوَضًا عن ولىّ الدَّولة ابن خَيْران والمتوفى سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١م . ومن هذه «الرَّسائل» نسخة فى مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ضمن مجموعة يهودا التى تُكَوِّن قسمًا من مجموعة جاريت Garrett كبرى مجموعات القسم العربى برقم ٤٣٦٥[١] . والفضل فى تعريفى بهذا الكتاب

---

(١) Mach, R., *Catalogue of Arabic Manuscripts (Yahuda section in the Garrett Collection - Princeton University Library)*, Princeton 1977, p. 374.

يرجع إلى الدكتورة باولا سوندرز Paula Sanders الأستاذة بجامعة Rice بالولايات المتحدة الأمريكية التى أمدتنى بصورة لهذا الكتاب عندما عَرَفَت باهتمامى بنشر نَصّ ابن الطُّوَيْر وكُتُب البِشَارة بالسَّلَامَة بركوب الخليفة فى المواكب المختلفة ، فلها الشكر الجزيل على صادق عونها وفى انتظار نشرتها الكاملة لهذه الرَّسائل الهامة .

وجَعَلْتُ « فهارس الكتاب » متنوِّعة لتُسَهِّل على القارئ استخدام الكتاب والتعرُّف على دقيق تفصيلاته . فصنعت فهرسًا للأعلام ، وفهرسًا للخِطَط والأماكن الأثرية بالقاهرة والفسطاط ، وفهرسًا للمواضع والبلدان ، وفهرسًا للمصطلحات وأسماء الدواوين والمآكل ، وأخيرًا فهرسًا للملابس والأزياء والأقمشة .

*
* *

ويقتضينى واجب العِرْفَان بالفَضْل أن أتوجَّه بالشُّكْر إلى عميد الاستشراق الفرنسى البروفيسير كلود كاهن Claude Cahen ، الذى كان من أوائل الذين نَبَّهوا إلى قيمة هذا الكتاب وأهميته . وعندما علم بنيتى فى إخراجه طَلَب إليَّ ، فى آخر لقاء لنا فى باريس ، أن يكون أوَّل عملٍ أقوم به بعد مناقشة أطْرُوحتى ، هو نَشْر نص ابن الطُّوَيْر ، ويُسْعِدُنى أن أهدى إليه اليوم هذا العمل متمنيًا له دوام الصِّحَّة والعافية .

أما الفَضْل فى إخراج الكتاب إلى حَيِّز الوجود فيرجع إلى الصديقين الدكتور أولريش هارمان Ulrich Haarmann الأستاذ بجامعة فرايبورغ والدكتور أنطون هاينن Anton Heinen المدير السابق للمعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت ، اللذين عَرَفا قيمة هذا النص وأهميته ورحَّبا بحماس شديد بإخراجه فى سلسلة « النَّشَرات الإسلامية » التى تصدرها جمعية المستشرقين الألمان ، فالشكر الجزيل على عونهما الصادق وترحيبهما بنشر الكتاب . والشكر كذلك

إلى الدكتورة إريكا جلاسن Erika Glassen المديرة الحالية للمعهد الألمانى التى يَسَّرت لى كافة الإمكانيات لطبع الكتاب والإشراف عليه ليخرج فى هذه الصورة اللائقة .

وبعد ، فهذا « تاريخ ابن الطُّوَيْر » يظهر لأول مرة بِعد أن جَمَعت شَمْل نصوصه المتفرِّقة وضَبَطتُها وعَلَّقْت عليها وشَرَحت مُصْطَلَحاتها وكشفت الغامض منها ، آملًا أن أكون قد وُفِّقْت فيما قَصَدْتُ إليه من بَذْل الجُهْد وشِدَّة العناية ، راجيًا التجاوز عما يكون قد تَسَرَّب إليه من هنات ، فالكمال لِله وحده ، وهو المسئول أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

مصر الجديدة فى ٩ جمادى الآخرة ١٤١٠هـ .

٦ يناير ١٩٩٠م .

أيمن فؤاد سيّد

نظم الفاطميين ورسومهم في مصر

كما جاءت عند ابن الطوير

تمهيد

كان أوَّل من اهتم بدراسة رُسُوم الفاطميين فى مصر المستشرق الروسى إنسترونزف Inastrontsef فى دراسته «الخروج الاحتفالى للخلفاء الفاطميين» (بالروسية) التى صدرت فى سان بُطْرُسْبرج سنة ١٩٠٥ . وهذه الدراسة هى أوَّل عمل علمى تناول عددًا من مظاهر تنظيم الاحتفالات الفاطمية . وقد نبَّه إنسترونزف فى هذه الدراسة إلى أهمية مقارنة الاحتفالات الفاطمية بالاحتفالات البيزنطية وطَرَح فكرة وجود تأثير ممكن لبيزنطة عليها .

و لم تقم أية دراسة جادة لنُظُم الفاطميين ورُسُومهم فى مصر منذ هذا التاريخ إلى أن كتب الدكتور عَطِيَّة مصطفى مُشَرَّفَة رسالته «نُظُم الحُكْم بمصر فى عصر الفاطميين» (القاهرة ١٩٤٧) تناول فيها نظام الخلافة ونظام الوزارة والقضاء والدَّعْوة والحِسْبة كما كانت تجرى فى الدولة الفاطمية .

وفى سنة ١٩٥١ عَقَد المستشرق الفرنسى ماريوس كانار M. Canard مقارنة بين رُسُوم الفاطميين ورُسُوم البيزنطيين اعتمادًا على المقريزى والقلقشندى وكتاب «الاحتفالات» لقسطنطين بورفيروجينيت[1] ، وهي دراسة عميقة ومركَّزة ؛ ثم أعقبها فى سنة ١٩٥٢ بدراسة عن «ركوب أوَّل العام عند الفاطميين» كما وصفه ابن الطُّوَيْر وابن المأمون اعتمادًا على نصوص المقريزى والقلقشندى وأبى المحاسن ودراسة إنسترونزف السابق الإشارة إليها .

وفى العام نفسه أتمَّ الدكتور عبد المنعم ماجد رسالته «نُظُم الفاطميين ورُسُومهم فى مصر» التى تقدَّم بها إلى جامعة السُّربون ثم نشرها بالعربية فى جزأين صدرا فى القاهرة سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٥ . وما يزال هذا الكتاب هو مرجع المهتمين بهذا الموضوع .

---

(١) انظر أعلاه ص ٦ .

وفى سنة ١٩٨٤ تقدَّمت الدكتورة باولا سوندرز برسالة إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية عن «رُسُوم الدولة الفاطمية فى مصر»
Paula Sanders, *The Court Ceremonial of the Fatimid Caliphate in Egypt*.
وهى الدراسة الوحيدة التى اعتمدت على نصوص المُسَبِّحِى وابن المأمون وابن الطُّوَيْر وتتبَّعت أوليات هذه الاحتفالات وتطوُّرها .

وبالإضافة إلى هذه الدراسات الرئيسية كتب H. L. Gottschalk مقالًا هامًا عن «الدواوين فى مصر الإسلامية» فى دائرة المعارف الإسلامية ، كما كتب الدكتور محمد حمدى المناوى رسالة عن «الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى» وقدَّمت الباحثة ليلى سامى العماد رسالة إلى جامعة نيويورك عنوانها «الوزارة الفاطمية»
al - 'Imād, L. S., *The Fatimid Vizirate* 969 - 1172, PH. D. 1986 [1].

نظم الفاطميين

عندما وَصَل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر عَهَد إلى يعقوب بن كِلِّس - اليهودى الذى أسْلَم فى زمن كافور والتقى بالمعز فى إفريقية - مهمة

---

[1] وصدرت مؤخرًا عِدَّة دراسات بالعربية عن الحياة الاجتماعية والمجتمع المصرى فى العصر الفاطمى ، ولكنها خَلَطَت بين الأعياد والاحتفالات Cérémonies كمظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، وبين الرُّسُوم المتبعة فى الاستعداد لهذه الاحتفالات وهو ما يُطْلق عليه البروتوكول أو تقاليد الاحتفال Cérémonial . راجع ، الشيخ الأمين عوض الله : الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، جدة ١٩٧٩ ؛ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى - دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٥ .

وأخيرًا نشرت باحثة فرنسية ترجمة للفصل الذى عقده القلقشندى عن الاحتفالات المدنية فى عصر الفاطميين Espéronier, M., « Les fêtes civiles et les cérémonies d'origine antique sous les Fatimides d'Egypte » - Extraits du tome III du *Subh al - Aʿšā* d'al - Qalqašandī » (traduction de), *Der Islam* 65 (1988), pp. 46 - 59 .

إعادة تنظيم إدارات الدولة الفاطمية فى مصر لمعرفته الجيِّدَة بأمورها وعلى الأخص ما يُدِرُّه كل إقليم فيها . وعيَّن المعز عُسْلُوج بن الحسن لمعاونته فى الإشراف على الشئون المالية[1] .

وقد وَضَع ابن كِلِّس فى مصر أساس نظام مركزى متدرِّج يأتى على رأسه «الإمام» وهو «الخليفة» ، الذى اعتبره الشيعة الإسماعيليون مُمَثِّل الله على الأرض ومنه تَنْبَثِق كل سُلْطَة[2] . وتقاسمت إدارة هذا النِّظام سلطاتٌ ثلاث : إدارية وقضائية ودعائية ، أما الجيش فكان يأتمر بأوامر الإمام (الخليفة) مباشرة . ولم يستمر هذا النظام طويلًا ، فقد كان لما أَلَمَّ بالدولة الفاطمية من أحداث واعتراها من ضَعْف ، دَوْرٌ فى تغيير وتعديل هذه الأنظمة ، وخاصة مع بداية ازدياد نفوذ الوزراء أرباب السيوف ، ولكنها احتفظت بالخطوط العريضة لهيكل هذا النظام . وكان الوزير هو الذى يتولّى الإشراف على السلطة الإدارية وقاضى القضاة هو المشرف على الشئون الدينية والتشريعية وداعى الدُّعَاة هو المشرف على الدعاية الفاطمية وأحيانًا كانت هاتان السلطتان تجمعان لشخص واحد . وبوصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة وبداية عصر الوزراء أرباب السيوف أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضى القضاة وداعى الدعاة فى الوقت نفسه .

ولتوضيح ذلك نقول : إن الوظائف الإدارية العليا فى الدولة الفاطمية كانت تنقسم ، كما هو الحال فى بقية العالم الإسلامى ، إلى ثلاث طبقات : الذين ينتمون إلى الطبقة العسكرية ويسمون «أرْباب السُّيوف» ، والذين ينتمون

---

(1) ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥-٦ ، ٢٦٩ واتعاظ الحنفا ١ : ١٤٤-١٤٥ ، ٢٢٣ والمقفى ٣٨٤ ، وابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٢٧ .

(2) السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ .

إلى الطبقة المدنية ويسمون «أرْباب الوَظَائف الديوانية» أو «أرباب الأقلام» والمنتمين إلى طبقة رجال الدين والعلماء ويسمون «أرْباب الوظائف الدينية» أو «أرباب العمائم» .

وَظَائِف أرْبَابِ السُّيوف

كانت وظائف أرباب السُّيوف فى زمن الفاطميين تنقسم إلى نوعين : وظائف عامة الجُنْد ، ووظائف خواص الخليفة من الأستاذين . وتنقسم هذه الوظائف بدورها إلى نوعين : الأستاذين المُحَنَّكين والأستاذين غير المُحَنَّكين .

فوظائف عامة الجُنْد تِسْع وظائف هى : الوَزَارَة (إذا كان الوزير صاحب سيف) – صاحبُ الباب – الإسْفِهْسَلار – حاملُ المِظَلَّة – حاملُ سيف الخليفة – حاملُ رُمْح الخليفة – حاملُ السِّلاح – والى القاهرة – والى مصر الفُسْطَاط .

ووظائف خواص الخليفة من الأستاذين المُحَنَّكين تِسْع وظائف هى : شادّ التاج – صاحبُ المَجْلس – صاحبُ الرِّسَالة – زِمَامُ القصور – صاحبُ بيت المال – صاحبُ الدَّفْتَر – حاملُ الدَّواة – زَمُّ الأقارب – زَمُّ الرجال[1] .

أما وظائف الأستاذين غير المُحَنَّكين فوظيفتان : نِقَابَةُ الطالبيين (العلويين) وزَمّ الرجال والطوائف[2] .

---

(1) هو الذى يتولى أمر طعام الخليفة كأستادار الصحبة فى العصر المماليكى .

(2) هو بمثابة مقدّم المماليك فى العصر المماليكى . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٧٨-٤٨٢) .

وقد أضاف إليها القلقشندى وهو يذكر الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب فى الدَّولة الفاطمية : النَّظَر فى المَظَالم -ولاية الشُّرطَة-ولاية المَعَاون والأحْدَاث-ولاية الحِمَاية-ولاية حِفْظ الثُّغُور-الإمارة على الحجّ-الإمارة على الجِهَاد-ولاية الأعمال[1] .

وَظَائف أرْبَاب الأقْلام

وكانت الوظائف الديوانية فى زمن الفاطميين تنقسم إلى أربعة أنواع متميِّزة هى : الوَزِير (إذا كان الوزير صاحب قَلَم) -ديوانُ الإنْشَاء (ويتعلَّق به صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات ، والتوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم ، والتوقيع بالقلم الجليل) -ديوانُ الجَيْش والرَّواتب (ويشمل ديوان الجَيْش وديوان الرَّواتب وديوان الإقْطاع) -الدَّواوين الإدارية وهى أربعة عشر ديوانًا : ديوانُ النَّظَر ، ديوانُ التحقيق ، ديوان المَجْلِس ، ديوان خَزَائن الكُسْوَة ، الطِّرَاز ، الخِدْمَة فى ديوان الأحْبَاس ، الخِدْمَة بديوان الرَّواتب ، الخِدْمَة فى ديوان الصَّعيد ، الخِدْمَة فى ديوان أُسْفَل الأرض ، الخِدْمَة فى ديوان الثُّغُور ، الخِدْمَة فى الجَوَالى والمَوَاريث الحَشْرِيَّة ، الخِدْمَة فى ديوانَىْ الخَرَاجى والهِلالى ، الخِدْمَة فى ديوان الكُرَاع ، الخِدْمَة فى ديوان الجِهَاد[2] .

* * *

---

[1] القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٠٨ .   [2] نفسه ٣ : ٤٨٥-٤٩٢ .

أَرْبابُ الوَظَائِف الدِّينية
أو أَرْبابُ العَمَائِم

وتشمل وظائف قاضى القضاة وداعى الدُّعاة والمُحْتَسِب ووكيل بيت المال والنَّائب والقُرَّاء[١] ، والنظر فى الأوقاف والأحباس ، والنَّظر فى المساجد وأمرِ الصلاة[٢] .

*
* *

وإذا كنت قد أجملت فيما سبق وظائف الدولة الفاطمية ودواوينها ، فسأُفَصِّل فيما يلى الحديث عن تطوُّر السُّلْطَة التنفيذية ممثَّلة فى الوزير والدواوين الإدارية ، والسُّلْطَة التشريعية ممثَّلة فى قاضى القضاة ، ثم السلطة الدِّعائية ممثلة فى داعى الدُّعاة ، وقبل ذلك منصب الإمام الرئيس الأعلى للدولة الفاطمية .

الإمَامُ (الخلِيفَة)

يأتى على رأس النِّظام الفاطمى شخصية الإمام أو الخليفة . وإذا كان تولِّى الخليفة لدى أهل السنة يأتى نتيجة انتخاب أو تعيين من الخليفة السابق تؤكّده مبايعة عامة ، فإن الإمام الفاطمى هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهى ، ويُخْتار ليكون وصيًا للنبى ﷺ ولعلى بن أبى طالب رضى الله عَنه . وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن ، أى يجب أن تكون فى الأعقاب من أبناء الحُسَيْن ،

---

(١) نفسه ٣ : ٤٨٢ - ٤٨٥ . (٢) نفسه ١٠ : ٣٠٨

ولا تنتقل من أخ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحَسَن إلى الحُسَيْن . والشَّرط الوحيد اللازم توافره فى شخص الإمام هو « الوَصِيَّة » أى « النَّص » عليه من الإمام السابق[1] ، وبالتالى فلا يتطلَّب الفاطميون توافر شروط خاصة فى الإمام (أو الخليفة) مثل الشروط التى يتطلَّبها أهل السنة فى شخص الخليفة أو الزَّيْدية فى شخص الإمام الزَّيْدى .

وكان من الممكن للإمام أن يُخْفى وَصِيَّته عن مجموع المؤمنين ولا يُعْلم بها إلَّا بعض الثِّقات لا غير ، الذين عليهم أن يكشفوا عنها فقط فى الوقت المناسب[2] . ورغم أن القاعدة هى فى نصّ الإمام على الابن الأكبر ، إلَّا أن الفاطميين لم يلتزموا بذلك دائمًا ؛ فقد عَدَل الخليفة المُعِزّ بوصيته عن ابنه الأكبر تميم ، الذى كان يحيا حياة عابثة لا تليق بمن سيُرَشَّحْ لإمامة المؤمنين[3] ، إلى ابنه الأوسط عبد الله ولكنه توفى فى حياة أبيه[4] . وبذلك كان يجب على المُعِزّ أن ينص ، وفقًا للعقيدة الإسماعيلية ، على حفيده ابن عبد الله ، ولكنه نقل وصيته إلى نِزَار أخ عبد الله الأصغر . كما أن الحاكم بأمر الله نصَّ فى حياته بالإمامة إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس فى سنة ٤٠٤ وَنَقَشَ اسمه على السِّكَّة وكتبه على الطِّراز[5] إلّا أنه حُبِس وأُبْعِد قبل وفاته وآلت

---

(1) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١ : ٥١ - ٧٧ .

(2) أبو على الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩ .

(3) نفسه ١٠٠ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ٢٠٢ - ٢٠٣ ، وانظر Makârim, S., « The Philosophical Significance of the Imam in Ismailism », *SI* 46 (1970), pp. 92 - 95.

(4) ابن زولاق عند ابن ميسر : أخبار ١٦٥ - ١٦٦ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١٥٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ - ٢١٧ .

(5) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ (شيخو) ٢٠٧ - ٢٠٨ ، ابن سعيد : النجوم ٦٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب (كولان وبروفنسال) ١ : ٢٦٠ ، النويرى : نهايـة الأرب ٢٦ : ٥٧ ، =

الإمامة إلى علىّ بن الحاكم الذى تلقّب بالظّاهر لإعزاز دين الله بفضل تدخل سِتّ المُلْك أخت الحاكم الكبرى[١] .

وقد أدّى هذا النظام إلى وصول عدد كبير من الأطفال إلى منصب الإمامة ، فبعد وفاة العزيز بالله سنة ٣٨٦ / ٩٩٦ خَلَفَه تسعة من الخلفاء كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة أطفال وأربعة مراهقين مما مكّن لرجال القصر ونسائه وللوزراء وقادة الجيوش السيطرة التامة على الدَّوْلة وأن تكون بأيديهم السُّلْطَة الحقيقية طوال عصر الدولة الفاطمية .

وظلّ توارث الإمامة يسير دون اعتراضات ذات شأن إلى حين وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، حيث تدخّل الوزير القوى الأَفْضَل شَاهِنْشَاه لعَزْل نِزَار ، الإبن الأكبر للمستنصر وصاحب الحق الشرعى فى الإمامة ، وتولية المُسْتَعْلى الابن الأصغر مما أدّى إلى نشوء أول انقسام فى الدعوة الفاطمية[٢] . كذلك فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤ / ١١٣٠

= المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٨ والاتعاظ ٢ : ١٠٠ – ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٣ – ١٩٤ ، Lane - Pool, S., *Catalogue of Oriental Coins in the Br. Mus.*, IV Coinage of Egypt, London 1879 p. 22 n.88, p. 26 m. 106 ; id., *Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in Khedivial Library at Cairo,* London 1897, p. 165 n. 1048 ; Wiet, G., *RCEA* t. VI n. 2212 - 2217.

(١) المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٦ ، ١٨٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٣– ١٩٤ .

(٢) يُعَدُّ ما قام به الوزير الأفضل انقلابًا سياسيًا واضح المعالم للمحافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتّع به منفردًا منذ أواخر عهد المستنصر . (راجع ، ابن ميسر : أخبار ٥٩ – ٦٣ ، ساويرس : تاريخ ٢ / ٣ : ٢٤٤ – ٢٤٥ ، ابن الأثير : تاريخ ١٠ : ٢٣٧–٢٣٨ ، ابن خلكان : وفيـات ١ : ٤٠٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٣ والاتعاظ ٣ : ١٢ والمقفى (خ . السليمية) ١٤٢ظ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ١٤٢ ، Gibb, H.A.R., *EI.*,art. *al - Mustaᶜlî*, III, pp. 819 - 820; Fuᶜâd Sayyid, A., op. cit., pp. 462 - 66.

دون وريث (وإن كان أشار إلى أنه قد ترك إحدى جهاته حاملًا)[1] تولَّى الأمر بعده ابن عمه عبد المجيد ، أكبر الأقارب سنًا ، كإمام مُسْتَوْدَع ، وفقًا للمصطلح الإسماعيلى ، إلى أن عزله الوزير أبو على الأفضل كُتَيْفات واستولى على السُّلْطَة لمدة أربعة عشر شهرًا باسم «الإمام المُنْتَظَر» ، إلى أن قُتِل أبو على وأعيد عبد المجيد فى المحرم سنة ٥٢٦ «وليًا لعَهْد المسلمين» ثم عيَّن نفسه إمامًا باسم «الحافظ لدين الله» فى ربيع الآخر سنة ٥٢٦[2] . كما أن الخليفة العَاضِد ، آخر خلفائهم ، لم يكن أبوه إمامًا كما يتطلَّب المذهب الإسماعيلى[3] .

والدَّوْلَة الفاطمية دولةٌ ثيوقراطية كان يُنْظر للإمام فيها ، بدون أى التباس ، كممثل لله على الأرض ، وبأنه المفَسِّر الأول للشَّرْع ومصدر كل العلم . وقد حرص كبار رجال الدَّعْوة على تأكيد هذا المعنى والإشارة إلى أن الإمام هو «وَلِىّ الله» الشَّافِع لهم جميعًا[4] . فقط الحاكم بأمر الله ذهب فى سنة ٤٠٨ / ١٠١٧ إلى حد اعتبار شخصه تجسيدًا للألوهية أو على الأقل إدّعاء الألوهية[5] .

وقد تدهورت سلطة الخليفة قرب نهاية القرن الخامس ، وأصبح الوزراء أرباب السيوف هم أصحاب السُّلْطَة الفعلية ، ونجح بعضهم فى اعتبار منصب الوزارة

---

(1) عن مشكلة خلافة الآمر بالله وهل ترك وريثًا للإمامة . راجع كتابى : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٧١-١٨٦ .

(2) انظر فيما يلى ص ٣٠ - ٣٤ .

(3) المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٢٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣٧ .

(4) السجلات المستنصرية (سجل رقم ٣٥) ، Sourdel, D., *EI²*., art. Khalifa IV, p. 977.

(5) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ ٢٢٠-٢٢٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٤١٣ والاتعاظ ٢ : ١١٣ ، Bianquis, Th., « Al - Hâkim bi amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain Fatimide », *Les Africains* XI (1978) pp. 107 - 133. وانظر موقف الإسماعيلية من ذلك عند الكرمانى : الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله ، تحقيق محمد كامل حسين ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٤ (مايو ١٩٥٢) ١ - ٢٩ .

وقتيًا منصبًا وراثيًا (بَدْرُ الجَمَالى - الأَفْضَل - أبو على الأَفْضَل ، الصالح طَلَائع - رزِّيك بن طَلَائع ، شاور - الكامل) .

وقد تلقَّب الفاطميون فى سجلاتهم وعلى نقودهم « بالإمام » و « بأمير المؤمنين » ، ولم يتلقَّبوا فى الوثائق الرسمية بالخليفة ، حرصًا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية[١] .

الوَزَارة

١ - وَزَارة التنْفِيذ

لم يعرف الفاطميون فى المرحلة الإفريقية نِظَام الوزارة . وحتى بعد انتقالهم إلى مصر فإن الخليفة المُعِزّ لم يَتَّخذ وزراء رغم أن هذه الرُّتْبة قد عُرِفَت فى مصر منذ زمن الطُّولونيين[٢] . ونحن نعرف أن ابن الفُرَات كان وزيرًا للإخشيديين ، ولكن عند قدوم الفاطميين توقَّف جَوْهَر القائد عن مخاطبة ابن الفرات بالوزير إلَّا بعد مراجعة ، لأنه كما قال ، لم يكن وزير خليفة[٣] .

وبعد وصول الخليفة المعز فَضَّل أن لا يُفَوِّض سلطاته إلى أحد وأن « يباشر التدبير بنفسه ولا يُعَوِّل فيه على غيره »[٤] ، ولكنه أَوْجَد ما أُطْلِق عليه « الوَسَاطَه » ، لأن

---

[١] ماجد : نظم الفاطميين ٧٤ - ٧٥ . وانظر الوثائق والسجلات الصادرة عن الخلفاء فى « السجلات المستنصرية » وهى السجلات الصادرة عن المستنصر إلى دعاته بجزيرة اليمن (نشرها عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤) ، ووثائق الخلافة التى جمعها جمال الدين الشيال ونشرها فى « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٨ ، والسجلات المحفوظة فى دير سانت كاترين والتى نشرها صمويل شتيرن ، Stern, S.M., *Fatimid Decrees*, London 1964 ، وانظر كذلك ما دونوه على نقودهم عند Miles, G. *Fatimid Coins* , NY 1952 .

[٢] السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠١ ، Hassan, Z.M., les Tulunides, p. 194.

[٣] المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٧ ، ١١٨ ، الخطط ١ : ٤٣٩ ، المقفى ٣٨٣ (نشرة محمد اليعلاوى) .

[٤] ابن الصيرفى : الإشارة ٤٧ .

صاحبها كان يتوسَّط بين الخليفة ورعيته ، بحيث أن القرار الأخير كان يأخذه الخليفة بنفسه[١] . وقد عهد المعز إلى يعقوب بن كِلِّس بالإشراف على الشئون الإدارية للدولة على أن يعاونه عُسْلوج بن الحسن فى الإشراف على الشئون المالية[٢] وقد ظلَّ الوضع على ذلك طوال عهد المعز وبداية عهد العزيز . وفى رمضان سنة ٣٦٨ / إبريل ٩٧٩ مَنَح الخليفة العزيز ابن كِلِّس لقب « الوزيرُ الأَجَلُّ » وأصبح بذلك أوّل وزراء الدولة الفاطمية[٣] وإن كان خلفاؤه لم يتمتعوا جميعًا بهذا اللَّقب ، فقد حملوا لقب « الوَسَاطَة » و « السِّفارة » ونادرًا ما كان بينهم من حمل لقب « الوَزَارة »[٤] . على أن هذا اللَّقَب لم يثبت رسميًا إلَّا فى زمن الخليفة الرابع الظَّاهر لإعزار دين الله (٤١١-٤٢٧هـ) . وقد حَفظ لنا ابن القَلَانِسى سِجِلَّ تولية الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرَائى ، أوّل من ثبَّت هذا اللقب ، وهو مؤرَّخ فى ذى الحجة سنة ٤١٨ / يناير سنة ١٠٢٨ وقد جاء فيه : « رأى أميرُ المؤمنين ، وبالله توفيقه ، أن يستكفيك أمرَ وزارته ويُنْزلك أعلى منازل الاصْطِفاء بخاص إثرته ، ويَرْفَعَك على جميع الأَكْفَاء بتام تَكْرِمَتِه ، ويُنَوّه باسمِك تنويهًا لم يكن لأحدٍ قَبْلَك من الظُّهراء فى دولته فسمَّاك « الوَزِير » لمؤازرتك له على حَمْل الأَعْبَاء ، ووكَّد هذا الاسم « بالأَجَلّ » لأنك أَجَلّ الوزراء ، وعَزَّز ذلك

---

(١) ابن الصيرفى الإشارة ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، بن القلانسى : ذيل ٨١ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٧ ، ١٧٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ٧٨ - ٧٩ .

(٢) ابن زولاق لدى ابن ميسر : أخبار ١٦٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥-٦ ، ٢٦٩ و اتعاظ ١ : ١٤٤-١٤٥ ، ٢٢٣ و المقفى ٣٨٤ .

(٣) ابن الصيرفى : الإشارة ٤٩ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ٢٨ ، ٢٣٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٧٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ ، ٢ : ٨٤ ، الاتعاظ ١ : ٢٤١ ، ٢٩٣ .

(٤) لم يستوزر العزيز أحدًا بعد ابن كِلِّس وإنما ضَمن مال الدولة على جماعة مستخدمين . (ابن ظافر : أخبار ٤٠) . كذلك فإن الحاكم بأمر الله كان يباشر الأمور بنفسه ويتولى أيضًا النظر والتدبير وكل الوزراء والسفراء الذين اصطفاهم لم تطل أيام نظرهم . (ابن الصيرفى : الإشارة ٥٥) .

« بصَفِىِّ أمير المؤمنين وخَالِصَتِه » إذ كنت « أعزَّ الخُلَصَاء والأصفياء »[١] . وقد وُجِدَت هذه الألقابُ بتمامها كما جاءت فى هذه الوثيقة الديوانية على الطِّراز وعلى النقوش والكتابات الأثرية التى جمعها جاستون فييت[٢] .

وابتداءً من هذا التاريخ (٤١٨ / ١٠٢٨) أصبحت الوزارة منصبًا وتكليفًا ويُطْلق عليها « رُتْبَة »[٣] وتُعَدُّ من ضمن الوظائف العامة وانقسمت إلى نوعين : وزارة قَلَم ووزارة سَيْف .

وكان أغلبُ وزراء الفاطميين قبل بَدْر الجمالى وزراء قَلَم ويُطْلق عليهم « وزراء التنفيذ »[٤] . ورغم أن أعباء هذا المنصب كانت تشمل جميع أعمال الدولة وتَضْمَن لصاحبها المكان الثانى مباشرة بعد الإمام أو الخليفة ، فقد كانت للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . بل إن وزير القَلَم لم تكن له سلطة كاملة على بقية موظفى الإدارة الذين كان يُعَيِّنهم الخليفة ، فكان بذلك وزيرًا مُعَيَّناً ذو سلطات محدودة .

ومن جهة أخرى فقد بدأ انحلال الدولة الفاطمية فى الظهور فى أعقاب وفاة الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرَائىّ فى رمضان سنة ٤٣٦ / مارس سنة ١٠٤٥ وهو الانحلال الذى أوشك أن يقودها إلى زوالها بعد ذلك بربع قرن[٥] . ولا شك أن منصب الوزارة حَفظ ثِقَله فى زمن وزارة الوزير الحسن بن على اليازورى (٤٤٢ – ٤٥٠ / ١٠٥٠ – ١٠٥٨) الذى سجَّل

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ٨١ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٣٦ – ١٣٩ ، ٣١٥ – ٣٢١ .

(٢) Wiet, G., *RCEA* VII, n° . 2402 , 2417, 2418, 2501, 2506, 2509 - 2513.

(٣) المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ .

(٤) فيما عدا بَرْجَوَان والحسين بن جوهر وعلى بن صالح . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٥ – ٤٨٦) .

(٥) ابن ميسر : أخبار ٣ – ٤ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ .

المؤرِّخون ألقابه التى تعدَّت ما جرى به الرَّسْم فى هذا الوقت[1] . فعندما عَهَد إليه الخليفة المُسْتَنْصر بمنصب الوزارة فى سنة ٤٤٢ / ١٠٥٠ كان يشغل مناصب القضاء والدَّعْوَة وتولَّى النَّظَر فى ديوان أم المستنصر فنُعِت « بالناصر للدين غيَّاث المُسْلمين الوزير الأجَلّ المُكَرَّم سَيِّد الرُّؤساء تاجِ الأصْفِياء قاضى القضاة وداعى الدُّعاة »[2] . ولكن بعد عَزْل هذا الوزير فى سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨ وفى أعقاب فَشَل الفاطميين أمام السَّلاجِقَة والذى كانت عواقبه وخيمة على مصر ، دخلت مصر فى أزمة إدارية كبيرة ، ففى خلال الفترة بين وفاة اليازورى ووصول بدر الجمالى إلى قمة السُّلْطة أُبْعِد أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا لم يتمكن بعضهم من مزاولة منصبه سوى أيام ، ولم يستطيعوا حِفْظ أمن البلاد مما حدا بالخليفة المستنصر ، الذى حار أمام الفِتَن والأزمات التى كانت تتفاقم يومًا بعد يوم ، إلى اللجوء إلى قائدٍ عسكرى هو والى عَكَّا بدر الجمالى يستدعيه لإنقاذ عرشه .

٢ - وزارة التفويض

فور أن انتهى بَدْرُ الجَمَالى من إعادة النظام إلى الدولة ونَشْر الأَمْن بين ربوعها ، فوَّضه الخليفة المستنصر فى جميع سلطاته ومَنَحه إشرافًا عامًا على شئون الدولة . وبقبول بدر الجمالى منصب الوزارة مضافًا إلى إمْرة الجيوش بدأ عصرٌ جديدٌ فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر ، عصرٌ تحكَّم فيه الوزراء أرباب السيوف وأصبحوا الحكَّام الفعليين للدولة ، وفقدت فيه الدَّعْوَه الكثير من قوتها بعد فَشَل محاولة البَسَاسيرى ، وبعد الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى

---

[1] ابن ميسر : أخبار ١١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٤٠ – ٤٥ ، ابن ظافر : أخبار ٧٨ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٣٥٩ ظ – ٣٦٨ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١٩٠ – ١٩٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٢ .

[2] نفسه ١١ ، المقريزى : المقفى ٣٦١ ظ .

مرَّت بها البلاد ، وبعد تقلُّص دور مصر الدولى فى أعقاب خروج شمال إفريقيا وصِقِلِيَّة وبلاد الشام عن سيطرة الفاطميين الذين وجَّهوا كل اهتمامهم إلى إنجاح استراتيجيتهم الشرقية للسيطرة على طرق تجارة الهند والشرق الأقصى ، وأصبح همُّ الوزراء هو الحِفَاظ على بقاء الدولة واستمرارها فيما اصْطُلِح على تسميته بـ «عصر نفوذ الوزراء» .

وبالفعل فقد حَفظ نظام بدر الجمالى وخلفائه المباشرين : الأَفْضَل والمأمون البَطَائحى ، الدولة الفاطمية وأطال بقاءها وأجَّل سقوطها نحو مائة عام أخرى بفضل سيطرتهم التامة على نظام الدولة الإدارى والدينى والعسكرى .

وهكذا أصبح بدرٌ الجمالى أول قائد عسكرى يولِّيه الفاطميون الوزارة[١] ، التى أصبحت منذ هذا التاريخ تقوم مقام السَّلْطَنَة ، أو كما يقول القلقشندى : «إن الوزير إذْ ذاك كان فى منزلة السلطان الآن»[٢] ، يتَّضح ذلك مما ورد فى سجل تولية بدر على لسان الخليفة حيث يقول : «... وقد قلَّدَك أميرُ المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشِر ما قلَّدك أميرُ المؤمنين من ذلك مدبِّراً للبلاد ومُصْلحًا للفساد ومدمِّرا أهل العناد»[٣] ، كذلك فقد ذكر المستنصر فى أحد سجلاته التى وجَّهها إلى دعاة اليمن أنه «فوَّض إليه أمور المُلْك الذى استخلفه الله تعالى على سلطانه»[٤] . يقول المقريزى : «فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض ويقال لمتوليها «أَمِيرُ الجُيُوش» وبَطُل اسم الوزارة»[٥] .

---

(١) ابن ميسر : أخبار ٣٩-٤٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢ ، ٤٤٠ و الاتعاظ ٢ : ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) القلقشندى : صبح ١٠ : ٨٠ ، ٣١٠ ، ٤٤٦ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢١٥ .

(٣) المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ .

(٤) السجلات المستنصرية سجل رقم ٣٤ ، ٥٩ .

(٥) المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ .

وكان لقبُ «أمير الجيوش» قبل بدر الجمالى ، كما يقول المقريزى ، مخصَّصًا لصاحب ولاية دِمَشْق[١] . ولكن بدر الجمالى أضفى شُهْرةً على هذا اللقب بشكل مثير للإنتباه حتى إنه حلَّ محل اسمه الشخصى للتدليل عليه . ورغم أن خلفاءه تلقَّبوا كذلك بلقب «أمير الجيوش» ، بما أنهم كانوا «وزراء سيوف» أى قادةً للجيش فى نفس الوقت ، فإن بدر الجمالى احتفظ وحده لدى المؤرِّخين المتأخِّرين بميزة أنهم كانوا يكتفون فقط لتعريفه بذكر لقبه «أمير الجيوش» دون أن يجدوا ضرورةً لإلحاق اسمه الشخصى بهذا اللقب . ومن هذا اللقب اشتقت النسبة «الجُيُوشِى»[٢] .

واعتبارًا من بدر الجمالى حَمَل جميع وزراء التفويض ألقابًا خاصة بهم لتأكيد قوة منصبهم ، فقد جمعوا إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية والقضائية وحتى الدينية . وهكذا فإن جميع شئون الدولة ، دون استثناء ، أصبحت خاضعة لسلطتهم ، ولم يبق للخليفة معهم أية سلطة[٣] .

وقد أدرك داعى الدُّعاة المُؤَيَّد فى الدين الشِّيرازى الخطر الذى يتهدَّد مستقبل الدَّعْوَة الفاطمية على يد الوزراء أرباب السيوف . وقد أشار بالفعل

---

(١) المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ . وكما يذكر ابن القلانسى وابن ظافر فإن أوّل من تلقَّب «أمير الجيوش» من ولاة دمشق كان القائد أنوشتكين الدزبرى (ذيل ٧١ ، أخبار ٦٣) . انظر كذلك : المسبحى : أخبار مصر ١٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٥٢ ، Stern, S.M., *Fatimid Decrees*, pp. 25, 30; Wiet, G., «Un proconsul fatimide de Syrie : Anushtakin Dizbiri (m. en 433 / 1042)», *MUSJ* XLVI (1970), pp. 383 - 407; Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide* pp. 175-273.

ويجب أن نذكر أن بدر الجمالى فى الفترة التى تولى فيها ولاية دمشق (٤٥٥ و ٤٥٧) لم يكن يلقب «بأمير الجيوش» وإنما «مقدّم الجيوش» . (Sauvaget, J., «Une inscription de Badr al - Gamâlî »), *Syria* X (1929), pp. 137 - 138; Wiet, G., *RCEA* VII, n° 2651. ابن القلانسى : ذيل ٩١ ، (Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 556.

(٢) Wiet, G., *CIA* Egypte II, pp. 147 - 148.

(٣) القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ٨٣ - ٨٤ .

فى سيرته الذاتية ، التى دوَّنها نحو سنة ٤٦٠ / ١٠٦٨ ، إلى مدى ضعف الخلافة وكيف أصبح المستنصر ألعوبة فى أيدى وزرائه[١] . فعمل لذلك على نقل تراث الدعوة من مصر إلى اليمن قبل وفاته سنة ٤٧٠ / ١٠٧٨ بواسطة رُسُلِه ودُعَاتِه حيث يوجد مؤمنون حقيقيون بالدَّعْوَة الفاطمية[٢] .

وصَدَق حَدْس الداعى المُؤَيَّد فبعد وفاته أضاف الخليفة المستنصر إلى بدر الجمالى مهمة الإشراف على القضاء والدَّعْوة بالإضافة إلى منصبى الوزارة وإمْرَة الجيوش وزاد فى ألقابه « كافِل قُضَاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »[٣] . يؤكِّد ذلك أن الكتابتين التاريخيتين اللتين تحملان اسم بدر الجمالى ويرجع تاريخهما إلى صَفَر وربيع الأول سنة ٤٧٠ ، والسجلات المدوَّنة قبل ٣٠ ذى القعدة سنة ٤٧٠ لا تشير إلى هذه الألقاب .

وهذا ما تثبته كذلك دراسة الكتابات الأثرية الخاصة ببدر الجمالى و « السِّجِلَّات المستنصرية » المرسلة إلى دُعَاة اليمن بعد هذا التاريخ . ففيما يخص الكتابات توجد مجموعة من النقوش مؤرَّخة فى سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧ ، قبل وفاة داعى الدُّعاة المُؤَيَّد فى الدِّين هِبَةُ الله الشِّيرازى فى شَوَّال من هذه السنة ، يُنْعَت فيها « بالسيد الأجلّ أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام »[٤] ؛ ثم

---

(١) المؤيد فى الدين : سيرة ٨٠ و ٨٤ .

(٢) محمد كامل حسين : مقدمة ديوان المؤيد فى الدين ١٥ ، حسين الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ١٧٧ – ١٧٩ ، Hamdani, H. « Some unknown isma^cili authors and their works », *JRAS* (1933), pp. 362, 376, 377; Hamdani, A., *Beginnings of the Ismaʿīli Daʿwa in Northern India*, Cairo 1955, p. 15; id., « The Fatimid Abbasid Conflict in India » *IC* (1967), p. 190 ، أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ٤٦ و تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٣٧ .

(٣) ابن ميسر : أخبار ٤٥ وانظر كذلك النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٧٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢ ، ٤٤٠ والاتعاظ ٢ : ١١٣ ، ٣١٩ والمقفى (خ . السليمية) ٢٤٣ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ .

(٤) Wiet, Gaston, *RCEA* VII, n°. 2716.

مجموعة أخرى ، أقدمها يرجع إلى سنة ٤٧٧ / ١٠٨٤ ، تضيف إلى الألقاب السابقة « كافل قضاة المسلمين وهادى دُعَاة المؤمنين »[١] .

وقد أوضح ابن مُيَسَّر فى نصٍّ صريح أن قضاء القضاة فُوِّض فى شعبان سنة ٤٧٠ إلى أمير الجيوش[٢] ، ويذكر المستنصر فى السِّجِلّ المؤرخ فى شوال سنة ٤٧٢ / إبريل ١٠٨٠ أنه أضاف إلى ألقاب بدر لقب « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » ليُقَلِّده أمور الدنيا وأمور الدين[٣] . وبذلك أصبح بدر مصدر كل قرارات الدولة ، ولكن لا يجب أن نظن أن بدرًا كان يقوم بنفسه بأداء عمل القاضى أو الداعى ، وإنما « جَعَل القاضى والداعى نائبين عنه ومقلَّدَيْن من قِبَلِه » وزيد له فى الزىّ « الحَنَك مع الذُّؤابة المرخاة والطَّيْلَسان المُقَوَّر زى قاضى القضاة »[٤] .

وإذا كانت المصادر الأدبية لا تمدّنا بالألقاب الكاملة للوزراء الفاطميين أرباب السيوف ، فإن الكتابات التاريخية والوثائق الرسمية أو صورها المحفوظة فى المصادر الأدبية ، وهى وثائق لا تقبل الشك ، تمدّنا بألقاب الوزراء الفاطميين : بَدْرُ الجَمَالى والأَفْضَل شَاهِنْشَاه والمأمون البَطَائِحى وبَهْرَام الأرمنى وعبَّاس الصِّنْهاجى وطَلَائع ابن رُزِّيك . أما ألقاب ابن مَصَال وابن السَّلار التى لم تُذْكر فى أى مصدر فيُفْترض أنها مطابقة لألقاب بَهْرام ورِضْوَان بن وَلَخْشِى بما أن نفس هذه الألقاب استخدمت لعبَّاس الوزير التالى لهما والذى نملك سجلًا يحمل ألقابه . وفيما يخص الوزراء الأواخر للدولة الفاطمية : رزّيك بن طلائع وضِرغام وشاور السَّعْدى وأسد الدين شيركوه وصلاحُ الدين فقد وردت ألقابهم فى المصادر الأدبية فقط .

---

(١) Wiet, G., *RCEA* VII, n°. 2745, 52, 62, 76, 94, 96; JA (1961), p. 14 - 15.

(٢) ابن ميسر : أخبار ٤٠ ، ٤٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢ والاتعاظ ٣ : ٣١٣ ، ٣١٩ .

(٣) السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٩ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٢٤٢ ظ .

(٤) ابن الصيرف : الإشارة ٥٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢ ، ٤٤٠ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٢ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ١٣٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ .

وفيما يلى الترتيب المستقر لألقاب وزراء السيوف الفاطميين ابتداء من بدر الجمالى وحتى ظهور لقب « المَلِك » بين ألقاب الوزير .

« السيد الأجلّ [النَّعْت الشخصى للوزير الذى أصبح ابتداء من الصَّالح طَلَائِع لقب « ملك »] أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين [ثم اسم وكنية ولقب الوزير الشخصى] »[١] .

وعادة ما يَتْبع لَقَبَ « السيد الأجَلّ » ، مباشرة النَعْتُ الشخصى للوزير . وكان هذا النعت هو « أميرُ الجُيُوش » بالنسبة لبدر الجمالى[٢] و « الأَفْضَل » بالنسبة لابنه شاهنشاه[٣] وحفيده أبى على كُتَيْفات[٤] ولِرِضْوان بن وَلَخْشِى[٥] ، و « المَأْمُون » لمحمد بن فاتك البَطَائحى[٦] ، و « المُفَضَّل » لسليم بن مَصَال[٧] ، و « العَادِل » لعلىّ بن السَّلار[٨] . أما الوزير عبَّاس الصِّنهاجى فقد ورد لقبه أحيانًا « الأَفْضَل »[٩] وأحيانًا أخرى « العَادِل »[١٠] . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة

---

(١) Wiet, G., *CIA* Egypte II, pp. 173 - 174.

(٢) انظر أعلاه ص ٤٥* .

(٣) السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ و ٤٣ ، Wiet, G., *RCEA* VIII, n°. 2912, 2986.

(٤) ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن ميسر : أخبار ١١٦ ، ابن الأثير : تاريخ ١٠ : ٦٧٢ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨١ ، ابن الفرات : تاريخ (خ . فيينا) ٣ : ٢٠ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٨١ ظ والاتعاظ ٣ : ١٤٣ – ١٤٤ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٠٥ .

(٥) ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، النويرى : النهاية – خ ٢٦ : ٩٠ وانظر أيضًا ابن ظافر : أخبار ٩٨ وفيما يلى ص ٤٧ .

(٦) نفسه ٨٨ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٨ ، المقريزى : المقفى (خ . ليدن) ٢ : ٢١٢ ظ والاتعاظ ٣ : ٦٤ – ٦٥ ، Wiet, G., *RCEA* VIII, n°. 3012; Dunlop, D. M., *EI²*., art. *al - Baṭâ'iḥî* I, p. 1124.

(٧) نفسه ١٤١ ، Canard, M., *EI²*., art. *Ibn Maṣâl* III, p. 892.

(٨) نفسه ١٤٢ ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٢٤٢ – ٢٤٣ ، Wiet, G., *EI²*., art. *al - Adil b.al - Salâr* I, p. 204.

(٩) نفسه ١٤٦ ، Stern, S. M., *Fatimid Decrees* pp. 65 - 69, id., *EI²*., art. *Abbâs b. Abil - Futûḥ* I, pp. 9 - 10.

(١٠) القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٢٢ .

الوزير يانس الرومى والوزير النَّصْرانى بَهْرَام الأرمنى ، فقد لُقِّب الأول « بأمير الجيوش » فقط[١] ولُقِّب الثانى « بسَيْف الإسلام تاج الملوك »[٢] .

وذكر ابن الأثير وأبو الفِدَا والقلقشندى والمقريزى أن رِضْوان بن وَلَخْشِى « هو أوّل من لُقِّب من وزرائهم « بالملك » مضافًا إلى بقية الألقاب »[٣] عندما وَزَر للحافظ لدين الله خلفًا لبَهْرَام الأرمنى فقيل له « السَّيِّدُ الأَجَلُّ الملك الأَفْضَل »[٤] ، وأكّد المقريزى ذلك فى « الاتعاظ » بقوله « وخَلَعَ عليه [الحافظ] خِلَع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى [سنة ٥٣١] ونُعِت « بالسَّيِّد الأَجَلّ الملك الأَفْضَل » »[٥] . ولكن ما يذكره المقريزى هنا يناقض نصًا آخر للمقريزى نفسه فى « الاتعاظ » حيث يذكر فى ترجمة الوزير طَلَائع بن رُزِّيك أن الخليفة الفائز أمر بأن يكتب له « سجل عظيم نُعِت فيه « بالمَلِك الصَّالِح » » وأضاف قائلًا « ولم يُلَقَّب أحدٌ من الوزراء قبله بالملك وذلك فى يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وخمسمائة »[٦] . ويؤكد ذلك ما ذكره ابن مُيَسَّر من أن الخليفة الحافظ أَخْلَع على رِضْوان بن وَلَخْشِى خِلَع الوزارة ونعته فقط « بالأَفْضَل »[٧] ، وكذلك

---

(١) ابن ميسر : أخبار ١١٧ - ١١٨ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٦ .

(٢) نفسه ١٢٢ ، القلقشندى : صبح ٨ : ٢٦٠ - ٢٦١ و ١٣ : ٣٢٥ ، Stern, S. M., *Fatimid Decrees* pp. 53, 59.
وراجع حول هذه الألقاب أيضًا ما ذكره القلقشندى : صبح ٥ : ٤٤٣ ، ٤٨٧ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ ١١ : ٤٨ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٣ : ١٢ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٤٨٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ .

(٤) المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ .

(٥) المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦١ .

(٦) نفسه ٣ : ٢١٨ ، ٢٥١ والخطط ١ : ٤٤٠ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ ٣/ ١ : ٤٦ الذى يذكر أن طلائع بن رزّيك نعت عند استقراره فى الوزارة بالملك الصالح . وانظر نص هذا السجل عند السيوطى : حسن ٢ : ٢٠٥ - ٢١٤ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥١ - ١٥٣ و ٣٣٧ - ٣٥٠ وراجع أيضًا Wiet, G., *RCEA* XIII, n°. 3489; XIV, n°. 3231; Stern, S. M., *op. cit.*, pp. 60, 76.

(٧) ابن ميسر : أخبار ١٢٦ .

سِجِل تقليد رضوان الوزارة ، والذى حَفَظَه القلقشندى ، وتقرَّرت فيه نعوته « بالسَّيِّد الأَجَلّ الأَفْضَل أمير الجيوش سَيْف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو الفتح رضوان الحافظى »[١] .

وهكذا عَظُم أمر الوزارة منذ أن تولَّاها أمير الجيوش بدر الجمالى « وصارت قائمة مقام السلطنة الآن » كما يقول القلقشندى[٢] ، وأصبح وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحلّ والعَقْد وإليه الحُكْم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتَّاب وسائر الرعية وهو الذى يُوَلِّى أرباب المناصب الديوانية والدينية[٣] .

وأصبحت الوزارة فى أواخر عصر الدولة الفاطمية ، كما يقول ابن الأثير ، « لِمَنْ غَلَب » ، والخلفاء من وراء الحجاب ، والوزراء كالمتملكين ، وقلّ أن وليها أحدٌ بعد الأَفْضَل إلَّا بحرب وقتل وما شاكل ذلك »[٤] .

ونظرًا لأن الخليفة الآمر بأحكام الله أمضى العشرين عامًا الأولى لحكمه (٤٩٥ – ٥١٥) محجورًا عليه من الوزير القوى الأَفْضَل شاهنشاه ثم شارك فى الحكم مع الوزير المأمون البطائحى (٥١٥ – ٥١٩) فإنه بعد أن تمكّن من أمره وعَزَل الوزير المأمون البطائحى لم يستوزر بعده وزير سيف بل اسْتَبَدَّ بالأمور وتصرَّف فى سائر أحوال المملكة وباشرها بنفسه[٥] واكتفى باتخاذ صاحِبَي ديوان أحدهما مسلم يعرف بجعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط ، والآخر سامرى اسمه أبو يعقوب إبراهيم وجعل معهما مستوف راهب يعرف بأبى نَجَاح بن قَنَا[٦] .

---

(١) القلقشندى : صبح ٨ : ٣٤٢ – ٣٤٦ ، الشيال : مجموعة الوثائق ٣٢٦ – ٣٣٣ .
(٢) نفسه ٥ : ٤٨٧ ، ١٠ : ٣١٠ .
(٣) المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ .
(٤) ابن الأثير : تاريخ ١١ : ١٨٥ .
(٥) ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ . ١٢٩ ، ١٣٢ .
(٦) فيما يلى ص ٢٠ – ٢٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٧ – ١٠٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١٥-١١٦ .

وكذلك فَعَل الخليفة الحافظ لدين الله فإنه بعد أن اعتقل الوزير رِضْوان بن وَلَخْشى فى سنة ٥٣٣ لم يستوزر بعده أحدًا إلى وفاته فى سنة ٥٤٤ ، بل استخدم كذلك « كُتَّابًا على سُنَّة الوزراء أرباب العمائم كأبى عبد الله محمد بن الأنصارى والقاضى الموفَّق التِنِّيسى وصنيعة الخلافة أبى الكرم الأخْرَم النَّصْرانى »[1] .

وعندما تولَّى الوزير شاور السَّعْدى الوزارة للخليفة العاضد للمرة الثانية بعد انتصاره على ضِرْغام فى رجب سنة ٥٥٩/ ١١٦٤[2] جَدّ أمرٌ جديد على نظام الوزارة الفاطمية ، فقد عُيِّن ابنه الكامل شُجاع نائبًا لأبيه فى الوزارة . وهى المرة الأولى التى يصادفنا فيها تعيين نائب لأحد وزراء الفاطميين أثناء وجوده ومباشرته الحكم[3] . وجاء تعيين الكامل فى منصب نائب الوزارة بعد حريق الفسطاط فى سنة ٥٦٤/١١٦٨ فى الوقت الذى استبدَّت فيه حامية الفِرِنْج بالقاهرة[4] . والسبب الذى دعا العاضد إلى التفكير فى إنابة الكامل عن أبيه هو الاختلاف الواضح بين موقف كل من الخليفة العاضد والكامل من جهة والوزير شاور من جهة أخرى من الفِرِنْج وجيوش نور الدين . فبينما سعى شاور إلى مصالحة الفِرِنْج كان العاضد والكامل يؤيدان الاستنجاد بجيوش نور الدين[5] . ونتيجة لاستبداد

---

(1) ابن ظافر : أخبار ٩١ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٠ .

(2) ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ .

(3) أناب بدر الجمالى ولده الأفضل شاهنشاه فى حياته كما يتضح من السجل رقم ٢٧ من السجلات المستنصرية المؤرخ يوم السبت عيد الأضحى سنة ٤٧٨ ، وكذلك من الكتابة التاريخية التى حفظها المقريزى والسخاوى والتى تفيد مشاركة الأفضل لأبيه فى سنة ٤٨٢ وهى الكتابة التى تعين الترميم الذى قام به بدر الجمالى فى هذه السنة لمشهد السيدة نفيسة . (الخطط ٢ : ٤٤٢ ، والسخاوى : تحفة الأحباب ١٣٥ ، وانظر كذلك ساويرس بن المقفع : تاريخ ٢/ ٣ : ٢٤٣ الذى يذكر أن الأفضل شاهنشاه تولى الأمر فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وأربعمائة قبل وفاة والده بدر الجمالى الذى كان قد مرض وانفلج لكبر سنه ، وأن المستنصر كتب له سجلًا بتقليده أمور المملكة والنظر فى سائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها

(4) المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٨٩ .

(5) الشيال : المرجع السابع ١٦٩ - ١٧٠ .

حامية الفِرِنْج بالقاهرة فقد عهد الخليفة العاضد فى هذا السجل إلى الكامل بالإشراف على مدينة القاهرة لتأمينها من الفوضى التى أحاقت بها على أيدى حامية الفِرِنْج وبسبب انتقال أهل الفسطاط إليها بعد حريق مدينتهم[١] .

ومنذ أن تولى شاور الوزارة للمرة الثانية بَطُل لقب «أمير الجيوش» واستعيض عنه بلقب «سلطان الجيوش»[٢] فقد كان هذا هو أيضًا لقب أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وقت أن توليا الوزارة للعاضد[٣] .

والأمر الذى يُمَيِّز منصب الوزارة فى العصر الفاطمى هو أن الكثير من وزراء الفاطميين ، سواء الذين مُنِحوا لقب الوزارة أو لقب الوَساطَة ، كانوا من النَّصَارى مثل : عيسى بن نَسْطورس وزير العزيز وكذلك زُرْعة بن نَسْطورس الشَّافى الذى خَلَف وزيرًا نصرانيًا آخر هو منصور بن عبدون الكافى ، كلاهما فى أيام الحاكم[٤] ، وأبو سعد منصور بن أبى اليُمن سورس ابن مكرَوَاه بن زنبور الذى كان نصرانيا وأسلم ، قال ابن ميسر : والنصارى تُنْكِر إسلامه . ونحن لا نعرف إذا كان يانس الأرمنى الذى كان وزيرًا للحافظ لعِدَّة شهور قد أَسْلَم أم ظلّ على نصرانيته . أما الحالة الصارخة فهى حالة الوزير بَهْرام الأرمنى الذى ظلّ على نصرانيته رغم كونه وزير سيف بكل سلطته ولُقِّب «بسيف الإسلام»[٥] . وفى المقابل فإن اليهود رغم أنهم شغلوا دائمًا مناصب هامة فى زمن الفاطميين فإنه يبدو أنهم كان عليهم أن يتحوَّلوا

---

(١) القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٨ - ٣٢٥ ، الشيال : المرجع السابق ١٥٧ و ٣٦٧ - ٣٧٩ .

(٢) نفسه ١٠ : ٣١٠ .

(٣) نفسه ١٠ : ٦ و ٨٠ و ٩١ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٦٤ و ٢ : ٤٤٣ .

(٤) نفسه ٣ : ٤٨٦ .

(٥) ابن ميسر : أخبار ١٢٢ .

إلى الإسلام ليتولوا منصب الوزارة : فقد اعتنق ابن كِلِّس الإسلام وكذلك أبو سعد إبراهيم بن سهْل التُسْتَرى ، الذى تولّى الوَسَاطَة فترة قصيرة للمستنصر ، وصَدَقَة بن يوسف الفَلَاحِى[1] .

تَطَوُّر الدَّواوين الفاطمية

مرَّ تطوُّر « الدَّواوين المصرية » بثلاث مراحل متميِّزة رغم أن استمرارية النُظُم الإدارية فى مصر تميل إلى أن تكون أقوى من تغيير الحكومات والأَنْظِمَة الحاكمة . فلا يوجد فى الواقع فاصلٌ واضحٌ بينها . وهذه المراحل هى : عصرُ الوُلَاة والدُّول المُسْتَقِلة (١٩ – ٣٥٨ / ٦٣٩ – ٩٦٩)[2] وعصرُ الدولة الفاطمية (٣٥٨ – ٥٦٧ / ٩٦٩ – ١١٧١)[3] والعصرُ الأيوبى المملوكى (٥٦٧ – ٩٢٣ / ١١٧١ – ١٥١٧)[4] . فقد استحدث الفاطميون أمورًا كثيرة فى نظام الحُكْم لم تكن قبلهم ، كما أن الأيوبيين استمدُّوا نظام دولتهم من نظام الأتابكة

---

(1) نفسه ٣ – ٥ ، ٢٥ ، ٥٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٤ ، Fischel, W. J., *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam*, New York 1969, p. 80.

(2) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٦٧ وانظر سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٢٥ – ٦٦ و مصر فى عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١٦٥ – ٢١١ ، Hassan, Z. M., *Les Tulunides*, Paris 1933, pp. 163 - 231.

(3) نفسه ٣ : ٤٦٨ – ٥٢٦ ؛ عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ .

(4) نفسه ٤ : ٥ – ٧٢ ، ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (مصر والشام والحجاز واليمن) ، القاهرة ١٩٨٥ ، Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564 - 741 / A.D. 1169 - 1341*, London 1972 ، على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ ، ١٨١ – ٢٩٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، Gottschalk, H.L., *EI²*., art. *Dīwān*, II, pp. 336 - 341.

والسَّلاجِقَة[١] ، وكانوا أصل الدولة التركية[٢] بحيث أن المماليك لم يُدخِلوا تغييرًا كبيرًا على أسلوب الحُكْم وجهاز الإدارة الأيوبى .

وقد لقيت دواوين الدولة تغييرات وتعديلات كبيرة طوال الفترة الفاطمية التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان . ولم يعرف الفاطميون أغلب هذه الدَّواوين خلال الستين عامًا التى أمضوها فى شمال إفريقيا ، كما أن قسمًا كبيرًا منها لم تعرفه النُظُم المصرية السابقة على الفاطميين ، بل استحدثه الفاطميون بعد انتقالهم إلى مصر . فالتنظيم الصارم الذى أدخله يعقوب بن كِلِّس وعُسْلُوج ابن الحسن على الإدارة والنُّظُم المالية كان أساس النِّظام المُعَقَّد للمُؤَسَّسَات العامة التى نَمَت وتبدَّلت أو اسْتُجِدَّت تدريجيًا طوال العصر الفاطمى[٣] .

ومصادر معلوماتنا الرئيسية عن دواوين الدولة الفاطمية فى مصر نستمدها من كتابين هما : « صُبْح الأَعْشَى » للقَلْقَشَنْدى و « خِطَط » المَقْريزى . وبالنسبة للفاطميين المتأخِّرين وبداية العصر الأيوبى يُمَثِّل كتاب « قَوَانين الدَّواوين » لابن ممَّاتى و « المِنْهاج فى أحكام صَنْعة الخراج » للمَخْزُومى بالإضافة إلى كتابَىّ « لُمَع القوانين المُضِيَّة » و « تاريخ الفيوم وبلاده » للنابُلْسى أهمية خاصة . أما « ديوان الإِنْشَاء » أو « الرَّسَائِل » فنحن نملك عنه كتابين مستقلَّيْن أحدهما عن الفترة الفاطمية الأولى هو « مَوَادُ البَيَان » لعلى بن خَلَف ، والآخر عن الفترة الفاطمية الثانية هو « قانون ديوان الرَّسائل » لعلى بن مُنْجِب ابن الصَّيْرَفى بالإضافة إلى صُوَر السِّجِلَّات والمناشير التى أوردها القلقشندى فى « صُبْح الأَعْشَى » .

---

(١) القلقشندى : صبح ٣ : ٥ .

(٢) نفسه ٧ : ١١٩ .

(٣) راجع ، Lev, Y., « The Fatimid vizier Yaʿqûb Ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt », *Der Islam* 58 (1981), pp. 237 - 249.

وقد اعتمد عَرْضُ القلقشندى والمقريزى لدواوين الدولة الفاطمية فى الأساس على ما أورده ابن الطُّوَيْر فى « نُزْهة المُقْلَتَيْن » ، وهى النصوص التى يجدها القارىء فيما يلى من صفحات هذا الكتاب .

وتُقَدِّم لنا الوثائق الرسمية القليلة التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى أسماء عدد من الدّواوين لم يرد لها ذِكْرٌ فى القائمة التى أوردها القلقشندى والمقريزى . فقد كانت العادة أن يُسَجِّل الكاتب فى نهاية كل سجل أو منشور أسماء الدواوين التى يجب أن يُثْبَت أو يُخَلَّد بها السِّجِل أو المَنْشور .

* * *

وعَرَف الفاطميون فى بداية حكمهم فى مصر عددًا من الدَّواوين ، ذكر أغلبها المُسَبِّحى فى تاريخه ، استمر بعضها يعمل إلى نهاية دولتهم وزال أغلبه أو تبدَّل أو تغيَّرت أهميته فى النصف الثانى من تاريخ الدولة . ولا تعيننا المعلومات المتوافرة لنا على دراسة تطوُّر الدَّواوين الفاطمية فى النصف الأول من تاريخ حكمهم فى مصر . فتاريخ المُسَبِّحى – وهو أقدم مصدر فاطمى وصل إلينا إذا استثنينا تاريخ ابن زولاق – لا يذكر لنا سوى أسماء سبعة دواوين فقط استمر عدد قليل منها وتغيَّر أكثرها وتبدَّل بعد ذلك هى : ديوان الأَحْبَاس وديوان البريد وديوان التَّرْتيب وديوان الخَرَاج وديوان الشَّام وديوان العَرَائف وديوان الكُتَاميين[1] ، أضاف إليها ابن مُيَسَّر والمقريزى : الديوان المُفْرَد والديوان الخَاص وديوان النَفَقَات وديوان دِمَشْق وديوان أم الخليفة المستنصر[2] ؛ بالإضافة إلى ديوان الزِّمام وديوان الأولياء الكبار وديوان

---

(1) المسبحى : أخبار ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٩ ، أبو صالح : تاريخ ٥١ (٤٠ ب) .

(2) ابن ميسر : أخبار ٥ ، ٢٤ ، ٩٠ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٠٨ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٤٨ ، ٩٠ ، ١٠٨ .

الطهاوية (أو الظاهرية) والديوان الفَرَجى ، وهى الدواوين التى وردت فى إسجالات « السِّجِل المنشور » الصادر عن الخليفة الظاهر فى المحرم سنة ٤١٥[١] . ويجب أن نضيف إلى هذه الدَّواوين دون شك « ديوان الإنْشَاء والمكاتبات » أو « ديوان الرَّسائل » . وواضح أن بعض هذه الدواوين نشأ لخدمة أغراض معيَّنة ثم زال بزوال الغرض الذى أنشىء من أجله .

وقد قَسَّم على بن خَلَف فى كتابه « مَوَاد البيان » الذى أَلَّفه نحو سنة ٤٣٧ / ١٠٤٥ مراتب الوظائف الديوانية أو المتعلِّقة بصناعة الكتابة إلى خمس عشرة مَرْتَبَة هى : الوَزَارة ، والتَّوْقيع والرَّسَائل ، والخَرَاج ، والضِّياع ، وبيت المال والخَزَائن ، والنَّفَقَات ، والجَيْش ، والزِّمام ، والبَرِيد والقَصّ ، والمَظَالِم ، وكتابة القضاء ، وكتابة القُوَّاد والأمراء ، وكتابة المَعَاون[٢] .

ولا يتَّفق هذا الترتيب كذلك مع ما أورده المُسَبِّحى وابن مُيَسَّر ، كما أنه لا يفيدنا كثيرًا فى التعرُّف على طبيعة الوظيفة الموكلة إلى هذه الدواوين أو إلى هذه الوظائف الديوانية .

وأغلب هذه الدَّواوين لا يرد ذكره فى توصيف دواوين الإدارة الفاطمية فى العصر الفاطمى المتأخِّر الذى ترجع إليه هذه الأوصاف ، ولكن دراستها تدلنا على أن بعضها قد زال فى النصف الثانى من تاريخ الدولة الفاطمية وبعضها الآخر تغيَّر اسمه والدور الذى يقوم به .

فديوان الشَّام وديوان دِمَشْق وديوان الكُتاميين وديوان أم الخليفة المستنصر والديوان الفَرَحى زالت بزوال سبب وجودها . فدور الكتاميين تلاشى فى أوائل القرن الخامس ، وديوان أم الخليفة تغيَّر دوره بتغير دور نساء القصر ونفوذهن ،

---

(١) Stern , S. M. *Fatimid Decrees* pp. 17 - 18 .

(٢) على بن خلف : مواد البيان ٧٠ – ٨٨ .

كما أن ديوان الشام وديوان دمشق زال دوره بخروج دمشق والشام عن السيطرة الفاطمية فى سنة ٤٦٨ / ١٠٧٥ .

أما أهم دواوين العصر الفاطمى الأوَّل التى استمرّت فى العصر الفاطمى الثانى ، مع تبدُّل أسمائها وتوسيع دورها ، فيأتى على رأسها « ديوان التَّرْتيب » أو « الرَّتيب » ، وقد تولّاه المؤرِّخ المُسَبِّحى أكثر من مرة فى زمن الحاكم بأمر الله[١] ، كما تولّاه أبو سَعْد محمد بن أحمد العَمِيدى الكاتب وعُزِل عنه سنة ٤١٣ قبل أن يتولّى ديوان الإنشاء[٢] ، كما ذكره ابن الصَّيْرفى فى زمن أبى على الأفضل كُتَيْفات[٣] . وقد جدَّد أبو عبد الله الأنصارى فى عهد الخليفة الحافظ ديوانًا سمّاه « ديوان الترتيب » تعادل وظيفته « ديوان البريد »[٤] . أما عمل « ديوان الترتيب » فى العصر الفاطمى الأول فهو أشْبَه بالتنسيق بين دواوين الدَّولة وهو الدور الذى سيقوم به فى العصر الفاطمى الثانى « ديوان التحقيق » .

الدِّيوان الثانى هو « الدِّيوان المُفْرَد » وهو ديوان أحدثه الخليفة الحاكم سنة ٤٠٠ برسم مَنْ يُقْبَض ماله من المقتولين أو من يَسْخَط عليه الخليفة[٥] ، وربما كان هذا الديوان هو الدِّيوان الذى عُرِف فى نهاية العصر الفاطمى « بديوان المُرْتَجَع » ، وقد جاء فى السِّجل الخاص بولاية متولّى هذا الدِّيوان ، والذى أورده القلقشندى ، أنه الدِّيوان الخاص بالمُرْتَجَع عن الوزير بَهْرَام وغيره وأنه من أجَلّ الدواوين وأوفاها[٦] .

---

(١) المسبحى : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفيات ٤ : ٣٧٧ ، الصفدى : الوافى ٤ : ٨ .
(٢) نفسه ١٣ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٧ : ٢١٢ ، القفطى : انباه الرواه ٣ : ٤٧ ، الصفدى : الوافى ٢ : ٧٦ ، السيوطى : بغية الوعاة ١ : ٤٧ . وانظر كذلك ساويرس : تاريخ ٢ / ٣ : ١٧٨ س ١٧ .
(٣) ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٣٥ .
(٤) المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٤ – ١٩٥ .
(٥) نفسه ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، والخطط ٢ : ١٥ س ٢٦ – ٢٧ و ٢٨٧ س ١٤ – ١٥ .
(٦) القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٥٧ – ٣٥٩ . ربما كان هو الديوان الذى ذكر فى وثائق ديرسانت كاترين باسم « ديوان الاستيفاء على الاقطاعات المرتجعة ... » (Stern S. M., *op. cit.*, p. 37).

أما « ديوان الزّمام » الذى جاء ذكره فى السِّجِل المنشور الصادر عن الخليفة الظاهر سنة ٤١٥[١] فيبدو أنه الدِّيوان الذى تحوَّل فى أواسط القرن الخامس إلى ديوان المَجْلِس . فالمقريزى ينقل عن « جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن على اليازورى » أن ديوان المَجْلس هو زمام الدواوين ، بما يعنى أن ديوان المَجْلِس هو اسم جديد لديوان الزِّمام[٢] .

ولا ندرى إن كان « ديوان الخاص » الذى كان يتولّاه عيسى بن نسطورس فى زمن الحاكم[٣] هو نفسه « الديوان الخاص » الذى كان يتولّاه أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط فى زمن الآمر بأحكام الله[٤] !

* * *

ديوانُ المَجْلِس وديوانُ النَّظَر .

لاشك أن الديوان الرئيس بين الدَّواوين الإدارية الأربعة عشر للدولة الفاطمية والذى يقابلنا اسمه فى المصادر مع أواخر القرن الخامس ، هو « ديوان المَجْلِس » . وهذا الديوان ، كما يقول ابن الطُّوَيْر ، هو أصل الدواوين وفيه علوم الدولة بأجمعها ويقال لمتوليه « صاحب ديوان المَجْلِس » ، ويشرف على إداراته المختلفة عددٌ من الكُتَّاب لكل واحد منهم مجلس مفرد ويعاونه معين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان هو المتحدِّث فى الإقطاعات . وأهم كُتَّاب هذا الديوان هو « صاحب دَفْتَر المَجْلِس » ويكون عادة من الأستاذين المُحَنَّكين[٥] . وتتولّى

---

(١) Stern , S. M., *op. cit* ., p. 17.

(٢) المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

(٣) ابن ميسر : أخبار ١٧٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٩٦ س ٢٦ .

(٤) أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

(٥) من بين الذين تولوا دفتر المجلس : أبو الفضائل ابن أبى اللَّيْث أخو الشيخ أبو البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث . (أبو صالح : تاريخ ٦٤ (٥٠ ب) ، المقريزى : المقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢٠٦ ظ) .

إدارات هذا الديوان المختلفة الإشراف على الإنعامات والأُعْطية ، ومَنْح الكُسْوات ، وتسجيل ما يرد من التُّحَف والهدايا من الملوك والأمراء ، وضَبْط ما يُنْفق فى الدولة من المهام لمعرفة ما بين كل سنة من التفاوت ، ويتم تنزيل كل ذلك فى « دَفْتَر المجلس »[١] .

ويتَّسم الدور الفَعَّال لديوان المَجْلِس بالمرونة حيث يشتمل على كل ما يتَّصل بالخليفة وتنظيم البلاط وتنظيم الأعياد والاحتفالات والنفقات الزائدة وتوزيع الإقطاعات ، والسياسة العامة ... إلخ .

ومن أهم مَهَام « ديوان المَجْلِس » عمل « الاسْتيمار » فى نهاية ذى الحجة من كل عام . فقد كان كتَّاب ديوان الرَّواتب (الذى أصبح فى فترة نجهلها فرعا لديوان المَجْلِس بعد أن كان فرعًا لديوان الجيش)[٢] يجتمعون فى هذا الوقت عند صاحب ديوان المَجْلِس ويحرِّرون قائمة بأسماء المرتزقين والمبالغ المؤدَّاة لهم عَيْنًا ووَرِقًا . وقد تولَّى مؤلِّفنا ابن الطُّوَيْر بنفسه ديوان الرَّواتب ، وذكر أن الاستيمار انعقد وقت تولِّيه هذا الدِّيوان على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتى ألف دينار[٣] .

ويبدو أن « ديوان المَجْلِس » هو تسمية جديدة « لديوان الزِّمام » الذى كان موجودًا فى مطلع القرن الخامس[٤] . ولا تفيدنا المصادر فى التعرف على الفرق بين « ديوان المَجْلِس » و « ديوان النَّظَر » الذى يبدو ، من وَصْف ابن الطُّوَيْر ، أن صاحبه كان يرأس دواوين الأموال[٥] ، وكان لصاحبه العَزْل والولاية ، وهو الذى يتولَّى عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة

---

(١) انظر فيما يلى ص ٧٦ .
(٢) المخزومى : المنهاج ٦٨ – ٦٩ .
(٣) انظر فيما يلى ص ٧٧ .
(٤) Stern, S. M., *op. cit.*, p. 17.
المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ .
(٥) ربما كان الديوان الذى يسمّيه المخزومى « ديوان المال » . (المنهاج ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢) .

أو الوزير ، وله الاعتقال بكل مكان يتعلّق بنوّاب الدولة ، وهو الذى يندب المترسلين لطلب الحساب والحَثّ على طلب الأموال ، ولا يُعْتَرَض فيما يقصده من أحد من الدولة . ولم يكن يتولّى هذا الديوان سوى المسلمين فيما عدا الأَخْرَم (الأَكْرَم) النَّصْرانى الذى توصّل إلى ولايته بالضَمَان فى سنة ٥٣٠ / ١١٣٦[١] .

و « ديوان النَّظَر » مما استُجِدَّ فى النصف الثانى من تاريخ الدولة الفاطمية[٢] ، وإن كانت وظيفته تبدو استمرارًا لوظيفة « ديوان النَّفَقات » الذى كان معروفًا فى أول القرن الخامس وتولّاه نجيب الدولة الجَرْجَرَائى سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ قبل أن يلى الوزارة[٣] ؛ ولم يكن ديوان النَّظَر معروفًا باسمه هذا فى العصر الفاطمى الأول كما ظَنَّ الدكتور حسنين ربيع ، فإشارة النُّوَيرى وابن مُيَسَّر التى يعتمد عليها تشير إلى أن أبا سَعْد التُسْترى تولّى نظر ديوان أم المستنصر وهو شىء آخر غير نظر الدّواوين[٤] .

وقد أمدَّنا ابن مُيَسَّر بأسماء بعض من تولّوا نَظَر الدّواوين فى آخر عصر الدولة الفاطمية ، أقدمهم الشريف معتمد الدولة بن جعفر بن غَسَّان المعروف بابن أبى العَسَّاف الذى تولّى نَظَر الدواوين بعد عَزْل وَلِىّ الدولة أبى البركات يُحَنَّا بن أبى اللَيْث عن ديوانى التحقيق والمَجْلِس سنة ٥٢٧[٥] . وفى سنة ٥٢٩ ولّى الخليفة الحافظ صنيعة الخلافة أبا الكرم الأَخْرَم ابن أبى زكريا النَّصْرانى نَظَر الدّواوين ، وهو النصرانى الوحيد الذى تولّى هذا الديوان ، إلى أن عزله الوزير ابن وَلَخْشِى سنة ٥٣٢ واستخدم عِوَضًا عنه القاضى المرتضى

---

(١) فيما يلى ص ٧٩ – ٨٠ .

(٢) انظر ، Geoffrey Khan , « A copy of a decree from the archives of the Fatimid chancery in Egypt » , *BSOAS* XLIX (1986) , p. 442 .

(٣) ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٠٨ .

(٤) Rabie , H., *op. cit.*, pp. 144 - 145 .

(٥) ابن ميسر : أخبار ١١٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٨ .

المُحَنَّك الطَرَابُلْسى[١] ، ولكنه لم يلبث أن صرفه الخليفة الحافظ وأعاد الأَخْرَم النصرانى إلى ضَمَان الدولة بعد عَزْل رضوان بن وَلَخْشِى[٢] . وفى سنة ٥٤٠ أوكل نَظَر الدَّواوين إلى القاضى المَوَفَّق أبى الكرم محمد بن معصوم التِّنِّيسى ثم صُرِف عنه فى سنة ٥٤٢ وأعيد إليه القاضى المرتضى المُحَنَّك[٣] . وممن تولَّى هذا الديوان كذلك أبو الحسن على بن سليم البوَّاب الذى قتله الوزير الصَّالِح طَلَائع مع آخرين فى سنة ٥٥٠[٤] ، ومحمد بن محمد بن محمد بن بنان الأَنْبارى الذى ذكر الصَّفَدى أنه « تولَّى ديوان النَّظَر فى الدولة المصرية وتقلَّب فى الخِدَم فى الأيام الصَّلاحية بِتِنِّيس والإسكندرية »[٥] .

وعلى العكس من « ديوان النَّظَر » فلم يكن يتولَّى « ديوان المَجْلس » عادة سوى النَّصَارى ، ورغم أن هذا الديوان قد عُرِف منذ وزارة الوزير اليازورى[٦] ، فإن أوَّل اسم يقابلنا فى المصادر لمتولِّى هذا الديوان هو أبو الطَّيِّب سَهْلون بن كيل المتوفى سنة ٤٨٠[٧] . وفى أيام الوزير الأَفْضَل شاهنشاه كان الشيخ أبو الفَضْل المعروف بابن الأُسْقُف هو « كاتب الأفضل والمُوَقِّع عنه فى الأموال والرجال ومتولى ديوان المَجْلِس والنَّظَر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »[٨] .

---

(١) نفسه ١٤٠ ، نفسه ٣ : ١٦٥ ، وانظر ابن ظافر : أخبار ٩٩ .
(٢) المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .
(٣) ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ .
(٤) نفسه ١٥٣ ، نفسه ٣ : ٢٢١ .
(٥) الصفدى : الوافى ١ : ٢٨٢ ، ابن شاكر : فوات ٣ : ٢٦٠ .
(٦) المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .
(٧) ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢ / ٣ : ٢٢٣ .
(٨) نفسه ٣ / ١ : ٣ والمقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

ديوان التَّحْقِيق :

وفي سنة ٥٠١/ ١١٠٧ استحدَثَ الوزير الأَفْضَل ديواناً سمَّاه «ديوان التحقيق» مقتضاه المقابلة على الدَّواوين ، كان لا يتولَّاه إلَّا كاتب خبير ويُلْحق بمتولى ديوان النَّظَر[١] . كان أوَّل من تولَّاه الشيخ وَلِيّ الدولة أبو البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث[٢] وأطلق عليه ابن ميسر اسم « ديوان المملكة »[٣] . وبعد وفاة الشُيخ أبى الفضل بن الأُسْقُف ، متولى ديوان المَجْلِس ، فى مطلع القرن السادس جُمِع لابن أبى اللَّيْث « ديوان المجلس » إلى « ديوان التحقيق » وظلَّ يليهما إلى أن صَرَفَه الخليفة الحافظ فى سنة ٥٢٧ /١١٣٣ « لأشياء نقمها عليه » وسَلَّم أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غَسَّان المعروف بابن العَسَّاف[٤] ، ولكن لم يكد يمضى عامان حتى استخدم الخليفة الحافظ الشيخ صنيعة الخلافة أبو ذكرى بن يحيى بن بولس الكاتب النَّصْرَانى فى ديوان التحقيق فى أيام وزارة بَهْرَام الأرمنى سنة ٥٣٠ / ١١٣٦[٥] .

وعندما تولَّى رِضْوان بن وَلَخْشِي الوزارة فى سنة ٥٣١ ، بعد عَزْل بَهْرَام الأَرْمَنِّى ، « أمر بعدم استخدام النَّصَارى فى الدَّواوين الكبار ولا نُظَّارًا ولا مُشَارفين »[٦] ، فعيَّن القاضى الخطير أبو الحسن على بن سليم بن البَوَّاب والقاضى المرتضى المُحَنَّك بن الطَّرابُلْسى على ديوانى التحقيق والمَجْلِس وديوان النَّظَر عِوَضًا عن ابن بولُس وعن الأَخْرَم النَّصْرانى[٧] .

---

(١) انظر فيما يلى ص ٨١ .

(٢) ابن المأمون : أخبار ٥٣ ، ٦٥ ، أبو صالح : تاريخ ٦٤ ، ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ، ساويرس : تاريخ ٣ / ١ : ٢٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٩ والاتعاظ ٣ : ١٢٦ .

(٣) ابن ميسر : أخبار ٩٠ .

(٤) ابن ميسر : أخبار ١١٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٨ .

(٥) ساويرس : تاريخ ٣ / ١ : ٣١ .

(٦) نفسه ٣ / ١ : ٣١ وانظر ابن ميسر : أخبار ١٢٨ – ١٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٣ .

(٧) نفسه ٣ / ١ : ٣١ والاتعاظ ٣ : ١٦٥ .

وفى أول الأمر كان ديوانا التحقيق والمَجْلِس يُجْمعان لشخصٍ واحد كما حَدَث مع الشيخ ولىّ الدَّولة أبى البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث ، يؤكِّد ذلك أن المَنْشُور الذى أصدره الخليفة الآمر بأحكام الله فى أعقاب وفاة الوزير الأفْضَل بن بدر الجمالى فى شَوَّال سنة ٥١٥ « بإمضاء ما كان الوزير قد قرَّره وخرجت به توقيعاته قبل قتله وعدم تغيير شىء منه » أمر باعتماده فى ديوان التحقيق والمَجْلِس وأن يُخَلَّد بهما[1] .

ويبدو أن « ديوان المَجْلِس » قد أُلْغِى فى عصر الدولة الأيوبية ، فيذكر النَّابُلْسى عند حديثه عن « ترتيب الدَّواوين بالديار المصرية » : « إن أحوال الدَّواوين بالديار المصرية كان على أنحاء مختلفة من زمن المصريين [أى الفاطميين] فكان لهم ديوان يُعرف « بديوان المَجْلِس » وهو النظر على أموال الزَّكاة والجَوَالى بالديار المصرية جميعها مع ما يضاف إليه من دواوين الباب ، وكان أجلَّ رُتْبَة عندهم وكان هو الذى يوقِّع بإطلاق جامَكِيَّات المستوفين ويكتب على مستحقات المستحقين من أرباب الجامكيات والرَّواتب فيه ، ليس لأحدٍ مع ناظر هذا الديوان حديث » وهو الذى يتولَّى إرسال التذاكر إلى الأعمال بطلب ديوان الزَّكاة والجَوَالى وحسباناتهما ويستخدم فيهما ويصرف ، وكذلك ديوان الخَرَاج وديوان المَوَاريث والنَّطْرون والثُّغور وغير ذلك من الدَّواوين . « ثم تَغَيَّر ذلك على أنحاء مختلفة إلى أن انتهى الحال إلى أن يؤمر المستوفون بعمل أوراق بالأشغال والدَّواوين »[2] .

أما « ديوان التحقيق » فيذكر ابن مُيَسَّر صراحةً أنه زال بسقوط الفاطميين إلى أن أعاده الملك الكامل محمد فى سنة ٦٢٤ واستخدم فيه ابن كَوْجَك اليهودى ثم أبطله نهائيًا فى سنة ٦٢٦ ، ويضيف ابن مُيَسَّر أنه فى أيَّام المعز

---

(١) المقريزى : اتعاظ ٣ : ٦٩ . (٢) النابلسى : لمع القوانين المضية ٣٦ .

أَيْبَك التُّرْكُمانى اسْتُخْدِم صفىّ الدِّين عبد الله بن على المغربى مستوفيًا على مقابلة الدَّواوين ، الذى يُعَدّ نوعًا من ديوان التحقيق[1] .

وقد استعاض الأيوبيون عن هذين الديوانين بما أُطْلق عليه « مجلس أصحاب الدَّواوين » الذى كان يجتمع بحضرة السلطان لتسمية ناظر الدَّواوين . وقد عُقِد مَرَّة فى العاشر من صفر سنة ٥٨٠ « للمفاضلة بين شخص يُدْعى ابن شُكْر وآخر يُدْعى ابن عُثْمان . ووقع اختيار المجلس أولًا على ابن عُثْمان ثم صُرِف بابن شُكْر الذى سُمِّىَ فى خامس عشر ربيع الأول من السنة نفسها « بناظر الدَّواوين » . وعُقِد المجلس كذلك فى رابع المحرم سنة ٥٩٠ بحضرة السلطان العزيز عثمان[2] .

ديوانُ الخاصّ :

وإلى جانب ديوانى المَجْلِس والتحقيق كان هناك ديوانٌ آخر يُعْرف « بديوان الخَاص » لا نعرف وظيفته على وجه التدقيق ولكنه كان يُجْمَع دائمًا إلى ديوان المَجْلِس فيقال « ديوانى المَجْلِس والخاص السعيدين »[3] أو « ديوان الخاص والمَجْلِس »[4] وعادة ما كانت هذه الدَّواوين تُنْسَب إلى الخليفة الحاضر كأن يقال « ديوانى المَجْلِس والخاص الآمريين السعيدين »[5] أو « الديوان الخاص الآمرى »[6] أو « ديوان المَجْلِس الفائزى »[7] .

---

(١) ابن ميسر : أخبار ٧٧ – ٧٨ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ١ : ٨٨ ، ١٢٠ ، Rabie , H., *op. cit.*, p. 146 .

(٣) Stern , S. M., *op. cit.*, p. 36 .

(٤) ابن المأمون : أخبار ٦٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٩ .

(٥) نفسه ٣٠ ، ٣١ ، نفسه ١ : ٨٤ .

(٦) أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

(٧) Stern , S. M., *op. cit.*, p. 72 .

ديوانُ الجَيْش :

ينقسم « ديوان الجَيْش » إلى قسمين : « ديوان الجَيْش » وفيه مستوفٍ أصيل لا يكون إلّا مُسْلمًا[١] ، ويكون فى خدمته نُقَباء الأمراء ينهون إليه أخبار الأجناد من حياة وموت وصِحَّة ومرض . و « ديوان الرَّواتب » ويشتمل على أسماء كل مرتزق فى الدولة ، وفيه كاتب أصيل ونحو عشرة من المعينين والمُبَيِّضين وفيه ثمانية عروض تحوى جميع أرباب الدَّولة[٢] . وقد انتقل ديوان الرَّواتب ، نحو بداية عصر الخليفة الحافظ ترجيحًا ، من أن يكون فرعًا من ديوان الجيش إلى أن صار فرعًا لديوان المَجْلِس الذى تجرى فيه معاملات الأموال[٣] . يؤكد ذلك ما ذكره أبو صالح الأرْمَنّى من أن شخصًا يُدْعى أبا الفخر ويعرف بسُعَيْدان كان كاتب الرَّواتب بديوانَ المَجْلِس[٤] .

دِيوَانُ الرَّسَائل أو ديوَانُ الإنْشَاء والمُكَاتَبَات :

وإلى جانب هذه الدَّواوين استمر يؤدِّى وظيفته طوال العصر الفاطمى دون تغيير يُذْكر « ديوانُ الرَّسائل » ، وهى التسمية التى كانت تُطْلَق على هذا الديوان حتى حَلَّ محلها نهائيًا ابتداءً من القرن الرابع مصطلح « ديوان الإنشاء »[٥] . وهو ديوان مشترك فى جميع الأقاليم الإسلامية طوال العصور الوسطى . ورغم أن ابن الصَّيْرَفى المتوفى سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ ، ألَّف كتابًا اهتم فيه بذكر الشروط التى يجب أن تتوفَّر فى موظفى هذا الديوان وتوضيح تنظيمه الداخلى وسمَّاه « القانون فى ديوان الرَّسائل » ، فقد أطلق عليه فى مؤلَّف

---

(١) كان صاحب ديوان الجيش فى أواخر أيام المستنصر هو ثقة الملك أبو العلاء صَاعِد بن مُفَرِّج . (ابن ميسر : أخبار ٦٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٥) .

(٢) انظر فيما يلى ص ٨٣ –٨٥ .

(٣) المخزومى : المنهاج ٦٨ – ٦٩ .

(٤) أبو صالح : تاريخ ٤٣ (٣٣ ب)

(٥) القلقشندى : صبح ١ : ١٠٣ .

آخر هو « الإشَارَة إلى مَنْ نال الوَزَارَة » : « ديوان الإنْشَاء »[١] . وتُطْلق جميع مصادر العصر الفاطمى التى وصلت إلينا على هذا الديوان : « ديوان الإنْشَاء » وأحيانًا « ديوان المكاتبات »[٢] . وكان يرأس هذا الديوان كاتبٌ من أجَلّ كتَّاب البَلَاغَة يقال له « رئيس »[٣] أو « متولّى الديوان » أو « صاحب الدِّيوان » وكان يُخَاطَب « بالشيخ الأجَلّ » ويُلَقَّب « بكاتب الدَّسْت الشَّريف »[٤] .

* * *

وانفرد ابن الطُّوَيْر بالحديث عن عدد آخر من الدَّواوين مثل « ديوان الإقْطَاع » و « ديوان الصَّعيد الأَعْلى والأَدْنى » و « ديوان أسْفَل الأرض » و « ديوان الثُّغور » و « ديوان الجِهاد أو العَمَائِر » . ووردت أسماء بعض هذه الدَّواوين ، مع بعض التغيير ، على الإسجالات المثبتة على السِّجِلَّات والمناشير المحفوظة فى دير سانت كاترين . فديوان الصَّعيد الأعلى والأَدْنى يُسَمَّى فيها « ديوان الاسْتيفاء على الصَّعيدين الأعْلى والأدْنى وما جُمِع إليه »[٥] (ويعرف فى نسخة سجل أورده القلقشندى « بديوان الاسْتيفاء على الأعمال القبلية وما جُمِع إليه »)[٦] . ويُطْلق فيها على ديوان الثُّغور « ديوان الاستيفاء على الثُّغور المحروسة والطُّور الشريف وما جُمِع إليه »[٧] . وذلك بالإضافة إلى « ديوان

---

(١) ابن الصيرفى : الإشارة ٨٥ ، ٩٢ .

(٢) على بن خلف : مواد البيان ٧٥ – ٧٦ ، ابن المأمون : أخبار ٢٧ ، ٥٢ ، ١٠٣ ، ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٩٠ ، القلقشندى : صبح ١ : ٨٩ – ٩٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٤ .

(٣) ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل ٧ .

(٤) فيما يلى ص ٨٧ ، ابن ميسر : أخبار ١١٢ ، القلقشندى : صبح ١ : ١٠٢ ، ١٠٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٢ ، ٢ : ٨٦ س ٣٥ – ٣٦ .

(٥) Stern , S. M., *op. cit*., p. 37.

(٦) القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٦٤ .

(٧) Stern , S. M., *op. cit*., p. 54 , 66.

الاسْتيفاء على الأعمال الشرقية »[١] و « ديوان الاسْتيفاء على الإقطاعات المرتجعة والرِّباع والأجنة السلطانية وما جمع إليه »[٢] والذى يبدو أنه هو نفسه « الديوان المُرْتَجَع » الذى ذكره القلقشندى[٣] .

القَضَـــاء

كانت السُّلْطَة القضائية واحدة من السُّلْطات الثلاث الرئيسية التى اشتمل عليها النظام الفاطمى فى مصر . فبوصول الفاطميين إلى مصر أضحت القَاهِرَة ، مثلها مثل بَغْدَاد وقُرْطُبَة ، مركز خلافة بعد أن كانت مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة العباسية بها قاضٍ يُعَيِّنه الخليفة العباسى السنى ، وهكذا عَرَفَت مصر فى العصر الفاطمى منصب « قاضى القضاة »[٤] .

وحرصًا من القائد الفاتح جَوْهَر الصِّقْلَبى على عدم خلخلة النظام الإدارى فى مصر ، وهو من أعقد أنظمة البلاد الإسلامية ، احتفظ بالموظفين الإخشيديين فى مناصبهم ومن بينهم القاضى أبو الطَّاهر محمد بن أحمد الذُّهْلى الذى كان قد عَيَّنه الخليفة العباسى فى سنة ٣٤٨ . ورغم مكانة القاضى النُّعْمان ابن حَيُّون الكبيرة لدى الخلفاء الفاطميين ودوره فى التعبير عن المعتقدات الفاطمية وتسجيل تاريخ أئمتهم ، فإنه لم يُكَلَّف رسميًا بالقضاء فى مصر وإنما شارك القاضى أبا الطَّاهر فى نظر بعض القضايا إلى أن توفى سنة ٣٦٣[٥] .

---

(١) Stern , S.M., *op. cit.*, p. 54.

(٢) *Ibid.*, p. 37.

(٣) القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٥٧ .

(٤) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١ : ١٤٠ .

(٥) Gottheil , R., « A Distinguished Family of Fatimide Cadis (al - Nuᶜmân) in the Tenth Century » , *JAOS* 27 (1906) , p. 239 . وهى نصوص منقولة من كتاب « رفع الإصر » لابن حجر ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢٥ .

وبعد ذلك استمر القاضى أبو الطَّاهر على حاله وجَعَل له الخليفة المُعِزّ عليًا ابن النعمان معاونًا له وكان يحكم بالجامع العتيق[١] . ولما تولَّى العزيز بن المعز الخلافة سنة ٣٦٥ ردّ أمر دار الضَّرب والجامع لعلى بن النعمان ، فشارك بذلك أبا الطَّاهر الذُّهْلى وجرى التنافس بينهما إلى أن أصابت أبا الطَّاهر رطوبة عطَّلت شِقَّه وأعجزته عن الحركة ، ففوَّض الخليفة الحُكْم إلى على بن النُّعْمان لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة[٢] . وهو أوَّل من خوطب « بقاضى القضاة » بالديار المصرية ، كما يقول ابن حجر ، لأنه جاء فى سِجِلّه ، الذى قرئ بالجامع الأزهر وبالجامع العتيق ، أن جميع الأعمال داخلة فى ولايته[٣] . أما أوَّل من كُتِب فى سجله « قاضى القضاة » فابنه الحسين بن على بن النعمان[٤] .

وقد توارث ستة من أسرة بنى النعمان منصب القضاء فى مصر أكثر من ستين عامًا تخلَّلها بعض الانقطاع .

وجرت العادة أن يُقْرأ سِجِلّ تولية قاضى القضاة فى الجامع بالقاهرة ومصر وهو قائمٌ على قدميه ، وكلما مرَّ ذكر الخليفة أو أحدٌ من أهله أومأ بالسجود[٥] .

وكان قاضى القضاة ، فى العصر الفاطمى الأول ، هو الذى يُعَيِّن سائر قضاة الأنحاء . ففى ربيع الآخر سنة ٣٨٢ خلع القاضى محمد بن النعمان على مالك بن سعيد الفارق وقلَّده قضاء القاهرة[٦] ، فلما خَلَفَ القاضى الحسين ابن على بن النعمان عمَّه محمدًا أقرَّه على ذلك واستخلف الحسين بن محمد ابن طاهر على الحكم بمصر[٧] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢٥ .

(٢) Gottheil , R., *op. cit.*, p. 240.

(٣) *Ibid.*, p. 243.

(٤) ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢١٠ .

(٥) Gottheil , R., *op. cit.*, p. 241.

(٦) المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٧٥ .

(٧) ابن حجر : رفع الاصر ١ : ٢٠٨ .

ولم يتولَّ أحد من أسرة بنى النُّعْمان أمر الدَّعْوَة الفاطمية قبل الحسين بن على بن النعمان الذى كان « أوَّل من أضيفت إليه الدَّعْوَة من قضاة العبيديين »[١] كما فُوِّض إليه كذلك الحكم بجميع المملكة وكذلك الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة والنَّظر عليها وعلى غيرها من المساجد ، وولى أيضًا مُشَارَفَة دار الضَّرْب وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها وذلك فى سنة ٣٨٩[٢] .

والحسين بن على بن النعمان هو كذلك أوَّل من أفرد لمَوْدِع الحُكْم مكانًا معيَّناً فى زُقاق القَنَادِيل بمصر الفسطاط ، فقد كانت الأموال قبل ذلك تودع عند القضاة أو أمنائهم[٣] .

* * *

ووظيفة قاضى القضاة من المناصب العليا فى الدولة الفاطمية كان يتقدَّم على داعى الدُّعَاة ويتزيَّا بزيِّه وهو من طبقة أرباب العمائم[٤] . وكان من عادته الجلوس بالقصر فى يومى الاثنين والخميس أوَّل النهار عند باب البحر للسلام على الخليفة[٥] ، ويبدو أن هذا التقليد اتبع بانتظام ابتداء من عصر الخليفة الآمر .

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يَحُول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير الحق ، فأمر أن يُضَعَّف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته وإقطاعاته ، وشَرَط عليه ألَّا يتعرَّض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه[٦] . وكان دَخْل القاضى

(١) ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٩ .
(٢) نفســه ١ : ٢٠٩ .
(٣) نفسه ١ : ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ٨٣ – ٨٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٥١ .
(٤) انظر فيما يلى ص ١١٠ .
(٥) فيما يلى ص ١٠٨ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٣٥٩ ظ ، الاتعاظ ٢ : ١٩٨ .
(٦) ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٨ – ٢٠٩ .

عبد الحاكم بن سعيد الفارقى عشرين ألف دينار فى السنة[١] . ويذكر ناصر خسرو أن مرتب قاضى القضاة بمصر ، نحو سنة ٤٤٠ ، بلغ ألفى دينار « حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم »[٢] ، بينما يذكر ابن الطُّوَيْر أن المستقر لقاضى القضاة ولداعى الدُّعاة مائة دينار فى الشهر من واقع ما سُجِّل فى ديوان الرَّواتب[٣] . أما ابن مُيَسَّر فيذكر أن جارى الحكم كان أربعين دينارًا فى الشهر[٤] ، وذلك فى أغلب الظن ، لقضاة النواحى .

ويُعَدُّ الوزير الحسن بن على اليازورى أوَّل من تولَّى الوزارة مضافًا إلى قضاء القضاة والتقدمة على الدُّعاة فى سنة ٤٤٢ « ولم يُجْمع ذلك لأحد قبله »[٥] ونُعِت « بالناصر للدين غيَّاث المسلمين الوزير الأجَلّ المكرم سيِّد الرؤساء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة » إلى أن قُضِىَ عليه فى المحرم سنة ٤٥٠[٦] .

وبعد عَزْل الوزير اليازورى فى أول سنة ٤٥٠ دخلت مصر فى أزمة إدارية حادَّة فخلال السبعة عشر عامًا التى أعقبت وفاته أُبعد أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا إلى أن وصل إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٦٦ .

وابتداء من هذا التاريخ طرأ تغيير كبير على وظيفة قاضى القضاة . فقد نُعِتَ بدر الجمالى فى أول الأمر « بالسيِّد الأجَلّ أمير الجيوش » ثم أضيف إلى ألقابه نحو سنة ٤٧٠ « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »[٧] وجُعل

---

[١] ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٠٨ .

[٢] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٩ .

[٣] فيما يلى ص ٨٤ .

[٤] ابن ميسر : أخبار ١٣٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٤ .

[٥] ابن ميسر : أخبار ٥٥ .

[٦] نفسه ١١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢١٢ ، المقفى (مخ . السليمية) ٣٦١و ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ .

[٧] انظر أعلاه ص ٤٦ .

القاضى والداعى نائبين عنه . وهكذا أصبح القضاة نوّاب الوزراء ويَذْكرون النيابة عنهم فى الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنْكِحَة[١] .

وكان قاضى القضاة طوال العصر الفاطمى يُخْتار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويُشْترط عليه ألّا يَحْكُم إلّا بمذهب الدَّوْلة ؛ فعندما استخلف على ابن النعمان أخاه محمدًا والحسن بن خليل الفقيه الشافعى « شَرَّط عليه أن يحكم بمذهب الإسماعيلية لا بمذهب الشافعى »[٢] . وبعد وفاة القاضى أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبى عقيل سنة ٥٣٣ « أقام الناس بلا قاض ثلاثة أشهر » ، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن الحُطَيْئَة المالكى اللَّخْمى « فاشترط أن لا يقضى بمذهب الدَّوْلة فلم يُمَكَّن من ذلك » ، فعهد الوزير ابن وَلَخْشى إلى الفقيه أبى محمد عبد المولى اللّبْنى بعقد الأنْكِحَة فأجاب وبقى الحكم شاغرًا[٣] .

والاستثناء الوحيد لذلك حَدَث فى الفترة التى تولّى فيها الوزارة أبو على الأفضل كتيفات ، عندما سَجَن الخليفة الحافظ ودعا للإمام المُنْتَظَر (ذو القعدة ٥٢٤ – المحرم ٥٢٦) . فقد رتَّب فى الحكم فى سنة ٥٢٥ أربعة قضاة يحكم كل قاض بمذهبه ويورِّث بمذهبه : قاض للشافعية وقاض للمالكية وقاض للإسماعيلية وقاض للإمامية ، وعلَّق ابن مُيَسَّر على ذلك بأنه « لم يُسْمع بهذا قط فيما سلف »[٤] .

---

(١) ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣ : ١٥٦ والمقفى (خ . السليمية) ٢٦٦ و .

(٢) Gottheil , R., *op. cit.*, p. 242.

(٣) ابن ميسر : أخبار ١٣١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٢٨ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ١٠٥ ظ ، الاتعاظ ٣ : ١٧٢ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٨٠ .

(٤) نفسه ١١٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ – ٨٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٢ ، الخطط ٢ : ٣٤٣ ، المقفى (خ . السليمية) ٨١ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٤٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٦٥ ، Allouche , A., « The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt » , *JAOS* 105 (1985) , pp. 317 - 320.

لذلك فقد كان يُعْهد أحيانًا إلى القاضى بتدريس دار العِلْم بالقاهرة مثلما حَدَث مع القاضى هبة الله بن حسن الأنصارى الأوسى المعروف بابن الأزرق فى ١٧ جمادى الآخر سنة ٥٣٤[١] .

وكان مجلس القاضى دائمًا يومى الثلاثاء والسبت بالزيادة البحرية الشرقية لجامع عمرو بالفسطاط ، فإذا أقبل العصر عاد القاضى إلى القاهرة[٢] . وله فى مجلسه طُرَّاحة ومَسْنَد حرير ، وقد استجد هذا الرسم بعد أن تولَّى القاضى أحمد بن عبد الرحمٰن بن أبى عقيل فى المحرم سنة ٥٣١ ، فإنه لما دخل مجلس القضاء « ووجد المرتبة أمر برفعها وجلس على طُرَّاحات السَّامان فاستمر هذا الرسم »[٣] . ويجلس الشهود حواليه يَمْنَة ويَسْرَة بحسب تاريخ عدالتهم وقد بلغ عِدَّة الشهود فى أيام القاضى محمد بن هبة الله بن مُيَسَّر (نحو سنة ٥٢٤هـ) مائة وعشرين شاهدًا ، وكانوا قبل ذلك دون الثلاثين[٤] . وكان يجلس بين يديه فى المجلس خمسة من الحُجَّاب : اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد يُنْفذ الخصوم إليه ، كما كان له كذلك أربعة من المُوَقِّعين بين يديه إثنان يقابلان اثنين وله كرسى الدّواة ، وهى دواة محلّاة بالفضة تُحْمَل إليه من خزائن القصور ، ولها حاملٌ بجامكية فى الشهر على الدولة[٥] .

وكان للقاضى برسم ركوبه على الدوام بَغْلَةٌ شَهْباء تخرج له من الاصطبلات الخليفية ، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة . وكانت تأتيه فى المواسم الأَطْواق ويُخْلع عليه الخِلَع المذهبة بلا طَبْل ولابوق ، إلّا إذا جُمِعَ له الحكم والدَّعْوة ، فإن من بين رسوم الدَّعوة فى الخِلَع الطبل

(١) نفسه ١٣٢ ، الاتعاظ ٣ : ١٧٣ .

(٢) فيما يلى ص ١٠٧ ، ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٥٣ والاتعاظ ٢ : ٢٢٤ .

(٣) فيما يلى ص ١٠٧ .

(٤) ابن ميسر : أخبار ١٠٧ ، المقريزى : الاتعاظ ٣ : ١٢١ .

(٥) فيما يلى ص ١٠٧ .

والبنود . أما إذا خُلِع عليه للحُكْم خاصة فيكون حواليه القُرَّاء رجّالة والمُؤَذِّنون يُعْلنون بذكر الخليفة أو الخليفة والوزير ، إن كان الوزير صاحب سيف[١] .

وإذا حضر قاضى القضاة فى مجلس فلا يتقدَّم عليه أحدٌ من أرباب السيوف أو الأقلام ، ولا يحضر عقود الأَنْكِحَة أو الجَنائز إلَّا بإذن ، ولا سبيل إلى قيامه لأحدٍ وهو فى مجلس الحُكْم ، ولا يعدَّل شاهدٌ إلَّا بأمره[٢] .

وابتداء من وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى لم يعد يخاطب من يتولَّى الحكم « بقاضى القضاة » لأنه أصبح من نعوت الوزير صاحب السَّيف . وكان من أهم أعباء منصبه النظر فى عِيَار دار الضَّرب لضبط ما يُضْرب من الدنانير[٣] .

وكان القاضى لا يُصْرف إذا وُلِّى إلَّا بُجنْحة .

وكان للقاضى مكان متميز فى المواكب والاحتفالات فمن ذلك « ركوب عيد الفِطْر » و « ركوب عيد النَّحْر » . فبعد فراغ الخليفة من الصلاة كان يصعد المنبر للخطبة العيدية وكان القاضى من بين من يَشْرُفون بالوقوف مع الخليفة ويَرْقى معه المنبر ليُزرِّر عليه المزرَّة الحاجزة بينه وبين الناس[٤] ، ويقرأ مدرجًا يكون قد أُحْضِر إليه من ديوان الإنشاء يتضمَّن ثبتًا بمن شَرُف بصعود المنبر الشريف مع الإمام يوم العيد[٥] . كما أنه يرقى المنبر مع الإمام فى صلاة الجمعة فى رمضان « وفى يده مدخنة لطيفة خيزران يُحْضِرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها ندّ مثلث لايُشَمّ مثله إلَّا هناك ، فيبَخِّر الذورة

---

(١) فيما يلى ص ١٠٨ .

(٢) فيما يلى ص ١٠٨ .

(٣) فيما يلى ص ١٠٨ والمقريزى : الخطط ١ : ١١٠ .

(٤) ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٦ .

(٥) ابن المأمون : أخبار ٨٧ ، ٨٨ وفيما يلى ص ١٨٠ .

التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرِّر ذلك ثلاث دفعات » ثم يصحب الإمام ومعه الوزير إلى المنبر حتى يستوى الإمام جالسًا فيزرِّر عليه المزرَّة ويقف صاحب الباب ضابطًا للمنبر إلى أن يخطب الخليفة خطبة الجمعة[١] .

والقاضى هو الذى يمسك الحَرْبَة للخليفة لينحر بها الأضاحى يوم عيد النَّحْر فى « المَنْحَر » فتكون بيد الخليفة الحربة من رأسها الذى لاسنان فيه ويد القاضى فى أصل سنانها ، فيجعله القاضى فى نحر النحيرة فيطعن به الخليفة[٢] .

وفى عيد غَدير خُمّ كان من الرسم أن يجلس القاضى والشهود تحت كرسى الدَّعْوة الذى كان يُنْصب فى الإيوان الكبير وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد ، فإذا فرغ الخطيب ونزل صَلَّى قاضى القضاة بالناس ركعتين[٣] .

وفى شهر رمضان كان يُعْقَد كل ليلة بقاعة الذَّهَب سماطٌ إلى آخر السادس والعشرين منه ، ولم يكن يُسْتَدعى له قاضى القضاة إلَّا فى ليالى الجمع فقط توقيرًا له[٤] .

وفى الاحتفال بالموالد الستة كان لقاضى القضاة دورٌ أساسى ، فهو أوَّل أرباب الرُّسُوم فى تفريق الحَلْوَاء التى تُعْمل بدار الفِطْرة احتفالًا بالمولد . وهو الذى يجلس بالجامع الأزهر بعد صلاة ظهر هذا اليوم مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يركب ومعه الشهود وداعى الدُّعاة بالنقباء إلى بين القصرين والركن المُخَلَّق لنظر الخليفة فى المنظرة المعدَّة لذلك ويرد عليه الخليفة السلام بواسطة أحد الأستاذين المُحَنَّكين[٥] .

---

(١) فيما يلى ص ١٧٣ . (٢) فيما يلى ص ١٨٤ . (٣) فيما يلى ص ١٨٨ ، ١٨٩ .
(٤) فيما يلى ص ٢١١ . (٥) فيما يلى ٢١٧ – ٢١٨ .

والقاضى كذلك هو الذى كان يقود موكب الاحتفال بليالى الوقود الأربعة بعد صلاة العصر إلى حيث رَحْبَة باب العيد أمام باب الزُّمُرُّد من القصر ، ويخطب الخطباء ويسلم عليه الخليفة مثلما حدث فى الاحتفال بالمولد ، وبعد زيارة قصيرة للوزير يشق القاضى والجماعة القاهرة وينزل على باب كل جامع بها ويُصَلِّى ركعتين ، ثم يخرج من باب زُوَيْلَة طالبًا الفُسْطاط وفى خدمته والى القاهرة ، فيدخل فى طريقه جامع ابن طولون للصلاة ويدخل المَشَاهد فى طريقه أيضًا ، ثم يجد والى الفسطاط فى خدمته بعد خروجه من جامع ابن طولون ويستمر فى اختراق الشارع الأعْظَم حتى يصل إلى باب الجامع من جهة الزيادة التى يحكم فيها ويُوقَد له التنور الفضة الذى كان معلقًا بها[1] .

وكانت عملية الإشراف على الأحباس وصيانتها موكولة كذلك إلى القضاة فيذكر محمد بن أسعد الجَوَّانى أن القضاة بمصر ، كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يومًا على المساجد والمَشَاهِد بمصر والقاهرة يبدؤن بجامع المَقْس ثم القاهرة ثم المَشَاهد ثم القرافة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وما تَشَعَّث منه وظل الأمر على ذلك حتى زوال الدولة الفاطمية[2] .

الدَّعْـــوَة

لما كانت الدَّوْلة الفاطمية قد قامت على أساسٍ تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسى فى هذه الدولة كان انعكاسًا لروح العقيدة الفاطمية نفسها ، حتى أصبحت أصْدَق مثال للدولة الدينية العقائدية

---

[1] فيما يلى ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

[2] المقريزى : الخطط ١ : ٤٩١ ، ٢ : ٢٩٥ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٢٢ .

(الثيوقراطية) فى الإسلام . فإن « الدَّعْوَة » كانت عماد هذه الدولة وأهم ما مَيَّزها عن الأنظمة الإسلامية الأخرى . فلم يستطع الفاطميون أن ينفصلوا عن الدَّعْوَة ، كما سبق وفعل العبَّاسيون ، فقد كانوا ينتظرون منها الكثير وكانت لهم بمثابة السِّلاح الإيديولوجى للنظام ، وكانت وظيفة داعى الدُّعاة ، كما يقول المقريزى ، من مفردات الدولة الفاطمية[1] .

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن حقيقة دور « داعى الدُّعَاة » فى مصر الفاطمية . ونحن نعرف ، تبعًا للعقيدة الفاطمية ، أن داعى الدُّعاة هو أحد دعائم هذه العقيدة وأن مرتبته تلى مباشرة مرتبة الإمام[2] . ولكن كل مصادرنا التى تحدِّثنا عن داعى الدُّعاة فى مصر تعتمد على النص الوحيد المنقول عن ابن الطُّوَيْر وفيه أن داعى الدعاة « يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيّا بزيِّه فى اللِّباس وغيره »[3] . وهذا التعريف ، الذى أورده ابن الطُّوَيْر ، يبدو مُحَيِّرًا إذ أن داعى الدُّعاة هو الذى يعقد « مجالس الحِكَم » سواء فى « المُحَوَّل » بالقصر أو فى « الجامع الأزهر » أو فى « دار الحِكْمَة » ثم فى فترة متأخِّرة فى « دار العِلْم »[4] ، وهو كذلك الذى يأخذ العَهْد وينشر الدَّعْوة بين المستجيبين ، وهو الذى كان يكتب ما يُلْقى فى « مجالس الحِكَم » بعد أن يأخذ عليه علامة الخليفة ويقرؤه على أتباع الدَّعْوَة على أنه صادر من الخليفة نفسه فى كل يوم اثنين وخميس ، للرجال على كرسى الدَّعْوة بالإيوان الكبير وللنساء بمجلس الداعى . وكان داعى الدُّعاة يقوم كذلك « بأخذ النَّجْوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لاسيما الصَّعيد ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع

(١) المقريـزى : الخطـط ١ : ٣٩١ ، وراجع : Ivanow , W., « The Organization of the Fatimid Propaganda » , *JBBRAS* XV (1939) , pp. 1 - 35.

(٢) Hamdani , A., « Evolution of the Organizational structure of the Fatimid Daʿwa » in *Arabian Studies* III (1976) , pp. 85 - 114.

(٣) فيما يلى ص ١١٠ .

(٤) القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٣٧ .

من ذلك شيء كثير يحمله إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى » . ويضيف ابن الطُّوَيْر أن من بين الإسماعيلية المموِّلين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارًا وثلثى دينار على حكم النَّجْوى وبصحبتها رقعة مكتوبة باسمه فيتميَّز فى المُحَوَّل وتعود إليه وعليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » فيَدَّخر ذلك ويُفَاخِر به[1] .

وقد حَفظ لنا المقريزى وثيقة هامة ومطوَّلة عن وظيفة داعى الدُّعاة وَوَصْف الدَّعْوة وترتيبها[2] .

وعلى ذلك فإنه يبدو غريبًا أن يقدِّم الفاطميون فى رُسُومهم قاضى القضاة على داعى الدُّعاة . وقد حدث كثيرًا أن جمع قاضى القضاة بين وظيفته ووظيفة داعى الدُّعاة ، بينما لم يحدث العكس إطلاقًا . وابتداء من وصول بدر الجمالى إلى الحكم جَمَعَ الوزراء بين الوزارة والقضاء والدَّعْوة وقيادة الجيوش ، وإن كان القاضى والدَّاعى نائبين عن الوزير . وقرب نهاية عصر الدولة الفاطمية أصبح لقب « هادى دعاة المؤمنين » لقبًا شرفيًا بما أنه كان من بين ألقاب أسد الدين شيركوه رغم أنه سنى المذهب .

ورغم أن مرتبة داعى الدُّعاة تلى الإمام فى تسلسل مراتب الدَّعْوة الفاطمية ، فإنه يبدو لى أن ذلك كان فى وقت استتار الإمام أو فى الجُزُر (جـ . جزيرة حيث قسَّم الفاطميون العالم إلى اثنتى عشرة جزيرة) التى تشرف عليها رئاسة الدَّعْوة الفاطمية . فبظهور الإمام لم تعد الحاجة ماسة إلى وجود داع للدُّعاة فى وجود الإمام حتى إن أكبر فقهاء الدَّعْوة الإسماعيلية القاضى النعمان بن حيُّون يُعْرف فى المصادر باسم القاضى وليس الدَّاعى ، كما أن أبناءه الذين

---

[1] فيما يلى ص ١١٢ .

[2] المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١ – ٣٩٧ ، Casanova , P., « La Doctrine secrète des Fatimides d'Egypte » , *BIFAO* XVIII (1920) , pp. 121 - 165.

عاونوا الدولة الفاطمية فى مِصر تولَّوا جميعًا القضاء فيما عدا الحسين بن على ابن النعمان الذى جَمَع بين الدَّعْوة والقضاء فى سنة ٣٩٣[١] . كذلك فإن شُهْرَة داعى الدُّعاة المؤيد فى الدين الشِّيرازى ترجع إلى الدور الذى لعبه فى فارس ومعاونته لأبى الحارث أرسلان البَسَاسيرى لإقامة الدَّعْوة الفاطمية فى بغداد ، أكثر من دوره كداعٍ للدُعاة ومتولٍ لدار الحكمة فى مصر الفاطمية .

وأوَّل الوزراء الذين جُمع لهم الوزارة والقضاء والدَّعْوة (قبل عصر الوزراء العظام) هو الوزير أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمٰن اليازورى وذلك فى سنة ٤٤٢[٢] ، والذى يعد بحق أهم وزراء الدولة الفاطمية فى عصرها الأول بعد يعقوب بن كِلِّس .

وقد تولَّت أمر الدَّعْوة بعد المؤيد فى الدين أُسَرٌ بأعيانها توارثت المنصب أهمها بنو عبد الحقيق ، كان أولهم وَلِىّ الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق المتوفى سنة ٥١٧ ، وبنو عبد القوى الذين كان آخرهم الجليس بن عبد القوى الذى أدركه أسد الدين شيركوه .

ومهما كان الأمر فبفضل « تنظيم الدَّعْوة » تمكَّن الفاطميون من بَسْط نفوذهم وسيادتهم على أماكن مترامية من الأراضى الإسلامَيه : فى السِّنْد والهند وعُمَان واليمن . وقام الدُعاة بدور ملحوظ فى فرض السيطرة الفاطمية على طرق التجارة البحرية المؤدِّية إلى الهند ، وفى العمل على إثارة القلاقل فى أراضى الخلافة العباسية نفسها . وقد ظَلَّ أتباع الدعوة ، فى أغلب هذه المناطق ، محتفظين بحماسهم لها ، ولم يتهاونوا فى ذلك أبدًا – كما حدث فى مصر مركز الخلافة الفاطمية – فحفظوا لنا بذلك جزءًا كبيرًا من التراث الإسماعيلى بدأ يرى النور منذ وقت غير بعيد .

(١) المقريزى : اتعاظ ٢ : ٤٩ – ٥٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٩ وحفظ القلقشندى سجل توليته فى صبح ١٠ : ٣٨٤ – ٣٨٨ .

(٢) ابن الصيرفى : الإشارة ٧٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٦٧ ، ٢١٢ ، المقفى (خ . السليمية) ٣٦١ و ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٣ ، ١٩٤ .

رسوم الفاطميين

الوزير المأمون والخليفة الآمر وتقرير الرُّسُوم الفاطمية .

لاشك أن وصول الوزير المأمون البَطَائِحى إلى الحُكْم فى نهاية عام ٥١٥ / ١١٢١ يُمَثِّل منعطفًا هامًا فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر . فطوال الثمانية والعشرين عامًا التى أعقبت وفاة المستنصر (٤٨٧ - ٥١٥) كان الوزير القوى الأَفْضَل شاهنشاه هو صاحب السلطة الفعلية فى البلاد ، فهو الذى أجلس المستعلى على كرسى الخلافة عوضًا عن أخيه نِزَار صاحب الحق الشرعى[١] ، وبعد وفاته أقام ابنه أبا على المنصور فى الخلافة فى صفر سنة ٤٩٥ ولَقَّبه بالآمر بأحكام الله ، وكان ما يزال طفلًا لم يتجاوز الخامسة من عمره[٢] . وهكذا ظَلَّ الأفضل طوال العشرين عامًا التالية حتى وفاته فى سنة ٥١٥ هو الحاكم الفعلى للبلاد فعَطَّل الكثير من رسوم الدولة وحَجَر على الخليفة الطفل ونقل الدَّواوين والأسْمِطَة إلى دار المُلْك التى أنشأها سنة ٥٠١ على النيل جنوب فسطاط مصر ، وقَلَّص دور الخليفة فى الاحتفالات والأعياد . فلما بلغ الآمر سن الشباب عمل على التخلُّص من سيطرة الوزير الأفضل . ويشير المؤرخون بأصابع الاتهام إلى تواطؤ تَمَّ بين الخليفة الآمر والقائد أبى عبد الله محمد بن فاتك ، أستاذ دولة الأَفْضَل ، للتخلُّص من الأفضل الذى قُتل عشية عيد الفطر سنة ٥١٥[٣] .

كان من الطبيعى أن يعرض الآمر الوزارة على القائد محمد بن فاتك ولكنه تمَنَّع عن قبولها فى أوَّل الأمر ، فعُيِّن وَاسِطَة ثم تولَّى الوزارة كاملة فى ثانى ذى

---

(١) ابن ميسر : أخبار ٥٩ - ٦١ وما ذكر من مراجع ، Fu'âd Sayyid , A., *La capitale de l'Egypte à l'époque fatimide* pp. 462 - 466.

(٢) نفسه ٧٠ - ٧٤ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ ٢٠٣ - ٢٠٤ وفيما يلى ص ٧ - ٨ .

الحجة سنة ٥١٥ . وقد حَفظ الخليفة الآمر للقائد أبى عبد الله حرصه على استدعائه له ، فى أعقاب مقتل الأفضل ، لتسلُّم تركته ، وكانت تركة عظيمة استمر نقلها من دور الأفضل إلى القصر نحو أربعين يومًا . وكان ذلك سبب تلقيب القائد أبى عبد الله « بالمأمون » فبعد أن شكره الآمر على صنيعه قال له : « والله إنك المأمون حقًّا مالك فى هذا النعت شريك . فلما قلَّده الوزارة نعته بالأَجَلّ المأمون فعرف به »[١] .

وقد قرئ سِجِلُّ تولية المأمون على « باب مجلس اللُّعْبَة » وهو ، كما يقول ابن المأمون « أول سِجِلّ يُقْرأ هناك » . فقد كانت سِجِلَّات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان . ثم أمر الخليفة الشيخ أبا الحسن ابن أبى أسامة ، كاتب الدَّسْت ، بكتابة سِجِلٍّ آخر بنقل نسبة الأمراء والأستاذين المُحَنَّكين من « الآمرى » إلى « المأمونى » فلم « يكن أحدٌ قبل ذلك يُنْسب إلى الأفضل ولا لأبيه أمير الجيوش وإنما يُنْسَبون إلى الخليفة ، فصاروا يُنْسبون إلى المأمون »[٢] .

وبعد انقضاء مراسم تقليده الوزارة ، وجد المأمون ضرورة مُلِحَّة لحديث منفرد مع الخليفة أملى عليه فيه شروطًا مهينة التزم الخليفة بها كتابةً وأَقْسَم له « بأن لا يلتفت لحاسدٍ ولا مبغض ، ومهما ذُكِرَ عنه يُطْلعه عليه ، ولا يأمر فى شىء سِرًّا ولا جهرًا يكون فيه ذهاب نفسه وانحطاط قدره ، وأن تكون هذه الأَيْمَان باقية إلى وقت وفاة المأمون ، فإذا توفى تكون لأولاده ولمن يخلفه بعده »[٣] .

وقد حرَّر الخليفة خَطَّه بالأَيْمَان من نسختين جُعِلت واحدة فى قَصَبَة فِضَّة أنفذ الخليفة فى طلبها عند القبض على المأمون فى سنة ٥١٩ وأحرقها ؛ أما

---

[١] فيما يلى ص ١٠ والمقريزى : المقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢١٢ ظ ، اتعاظ ٣ : ٦٤ - ٦٥ .

[٢] ابن المأمون : أخبار ٢١ ، المقريزى : المقفى ٢ : ٢٠٧ و ، الخطط ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣ : ٧٥ .

[٣] ابن المأمون : أخبار ٢٢ - ٢٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ والمقفى ٢ : ٢٠٧ و ، الاتعاظ ٣ : ٧٥ - ٧٦ .

النسخة الأخرى فقد بقيت عند ابن المأمون (جمال الدين أبو على موسى) ، الذى ذكر لنا تفصيل هذه المحادثة ، إلى أن عُدِمت « فى الحركات التى جَرَت »[١] .

وفى مقابل هذه الاشتراطات طلب الآمر إلى وزيره استعادة عَظَمَة الأعياد والاحتفالات الرسمية وأن لا تُجْبَى الأموال إلَّا بالقصر ، ولا تصل الكُسْوَات من الطِّرَاز والثُّغور إلَّا إليه ولا تُفَرَّق إلَّا منه ، وتكون أسْمِطَة الأعياد فيه ، ويوسَّع فى رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رسم المِنْديل الذى برسْم الكُمّ . وتعَهَّد له المأمون بأن تكون الجباية والكسوات والأسمطة بالقصر ، والعمل على توسعة الرَّواتب وزيادة رسم مِنْديل الكُمّ من ثلاثين دينارًا إلى مائة دينار فى اليوم وأن الآمر سيشاهد ما يُعمل بعد ذلك فى الركوبات وأسْمِطَة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام ، وهى الرُّسُوم التى كان قد منعها الوزير الأفضل وقَلَّص فيها دور الخليفة[٢] .

كان الآمر مفتونًا بعظمة الاحتفالات وفخامتها ، ويرجع إليه ، كما يقول المقريزى ، الفضل « فى تجديد رُسُوم الدَّوْلة وإعادة بهجتها إليها »[٣] . والواقع فإن كل ما نعرفه عن رسوم خلافة الفاطميين فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأَسْمِطَة وأنواع الخِلَع والكُسْوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة ندين به ، فيما عدا نُتَفٍ ذكرها المُسَبِّحى فى أول الدولة الفاطمية ، إلى هذه الفترة .

وإذا كان الفاطميون قد عرفوا هذه الرُّسُوم فى أوَّل دولتهم ، فقد شهدت فى زمن الآمر بأحكام الله تطوُّرًا كبيرًا وبَلَغَت من الفخامة حدًّا بعيدًا ، فوُضِعَت قواعد صارمة للبروتوكول حيث تقرَّر أن يجلس الخليفة الجلوس العام فى قاعة الذَّهَب يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع[٤] ، بعد أن كان يتم

---

(١) نفسه ٢٣ . (٢) نفسه ٢٣ . (٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١ . (٤) فيما يلى ص ٢٠٦ ، أبو صالح الأرمنى : تاريخ ٢ : ٤ ، ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٧٨ ظ .

فى أوَّل الدولة كيفما اتَّفَق[١] . ورُتِّب لركوب الخليفة ثلاثة أيام من كل أسبوع هى يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء ، فإذا لم يتهيّأ له الركوب فى أحد هذه الأيام ركب فى يوم غيره . فقد كان الوزير يركب فى يومى السبت والثلاثاء بالرَّهَجِيَّة إلى القصر ثم يمضى مع الخليفة إلى النزهة فى بستان البَعْل والتاج والخمسة وجوه وقُبَّة الهواء من ظاهر القاهرة ، أو إلى دار المُلْك بمصر ، أو إلى الهَوْدَج الذى أنشأه الخليفة الآمر بجزيرة الرَّوْضة[٢] . أما يومى الأحد والأربعاء فقد كان يجلس فيهما الوزير المأمون فى داره على سبيل الرَّاحَة[٣] .

وقد شَهد عام ٥١٦ / ١١٢٢ عودة الاحتفالات التى أُهْمِلَت منذ تَسَلُّط بدر الجمالى وابنه الأفضل على الدولة . فمع بداية هذا العام أعيد الاحتفال بالموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر بعد أن كان الأفضل قد أبطل أمرها وقَدُم العهد بها حتى نُسِيَ ذكرها . وأوَّل ما أعيد منها المولد الآمرى (مولد الإمام الحاضر) وكان فى الثانى عشر من المحرم[٤] .

وفى مستهل رجب عُمِلَت الأسْمِطَة الجارى بها العادة ، وقد انتهز الخليفة هذه المناسبة ليبالغ فى شُكْر وزيره وإطرائه بعد أن أظهر من المَسَرَّة والانشراح ما لم تجر به عادته ، على حد قول ابن المأمون . وقال للوزير : « قد أَعَدْت لدولتى بهجتها وجدَّدت فيها من المحاسن ما لم يكن ، وقد أَخذَت الأيامُ نصيبها من ذلك وبقيت الليالى ، وقد كان بها مواسم قد زال حكمها وكان فيها

---

(١) المسبحى : أخبار ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٩ .

(٢) ابن المأمون : أخبار ٩٦ – ٩٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨١ ، ٢ : ٢٩١ ، الإتعاظ ٣ : ٧٨ ، ١٢٩ والمقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢٠٩ ظ ، وكذلك ساويرس : تاريخ ٣ / ١ : ٢٤ .

(٣) المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٨ .

(٤) ابن المأمون : أخبار ٣٥ .

تَوْسِعَة وبِرٌّ ونفقات ، وهى : « ليالى الوقود الأَرْبَع » ، وقد آن وقتهن فأشتهى نظرهن » . فامتثل الوزير الأمر وتقدَّم إلى متولِّى بيت المال بأن يهتم بأمر هذه الليالى وأن يُطْلق للجوامع والمساجد تَوْسِعَة فى الزَّيْت برسم الوقود[١] .

وفى آخر رمضان عُمِل الخَتْم بالقصر وعُبِّى سِمَاط الفِطْرَة بمجلس المُلْك بقاعة الذَّهَب[٢] ، ووصلت الكُسْوَة المختصة بالعيد وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار[٣] . فقد كان الأفضل قد نقل الأَسْمِطَة وصارت تُعْمَل أيام الأعياد والمواسم فى دار المُلْك بمصر حيث كان يقيم[٤] . وفى هذه السنة صلَّى الآمر بالناس صلاة العيد فى المُصَلَّى ظاهر باب النَّصْر وخَطَب وكان ذلك قد بَطُل أيضًا منذ أيام أمير الجيوش[٥] .

ومن الأمور التى أُهْمِلَت ، بسبب الأزمة التى مرَّت بها البلاد فى منتصف القرن الخامس ، الإقامة بمنظرة اللُّؤْلُؤَة فى وقت زيادة النيل . فلما استعاد الآمر رسوم الدولة صار يتحوَّل فى أيام النيل من القصر بحرمه ويسكن فى اللؤلؤة المطلَّة على خليج القاهرة ، بينما يسكن المأمون فى دار الذَّهَب المجاورة لها ، والشيخ أبو الحسن على بن أبى أسامة منظرة الغزالة القريبة منها[٦] . وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه فيكون كيوم العيد[٧] ، وكانوا يصنعون أخشابًا متراكبة بعضها على بعض يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج ، لذلك فقد أمر الخليفة فى سنة ٥١٨ ببناء دار واسعة ليتفرَّج الناس فيها عند كسر الخليج بالكراء[٨] .

---

(١) ابن المأمون : أخبار ٣٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٢ والخطط ١ : ٤٦٦ والمقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢١٠ ظ .

(٢) نفسه ٨٣ ، نفسه ٣ : ٨٣ ، نفسه ١ : ٤٥٢ ، ٤٩٢ .

(٣) نفسه ٣٨ ، الخطط ١ : ٤٥٢ .

(٤) اتعاظ ٣ : ١٣٣ .

(٥) نفسه ٣ : ٨٣ وابن المأمون : أخبار ٢٤ – ٢٥ والخطط ١ : ٤٥٢ .

(٦) ابن المأمون : أخبار ٧١ ، ٩٨ – ١٠٠ ، الخطط ١ : ٤٦٨ ، ٤٧١ ، اتعاظ ٣ : ١٢٩ .

(٧) اتعاظ ٣ : ١٢٩ .

(٨) نفسه ٣ : ١٠٧ .

وهكذا فإن أغلب ما نعرفه عن رُسُوم الدولة الفاطمية يرجع إلى الفترة التى شارك فيها الخليفة الآمر الوزير المأمون فى الحكم (٥١٥ - ٥١٩) والتى قدَّم لنا ابن المأمون (الأمير جمال الملك أبو على موسى) تفصيلات دقيقة عنها . والفضل فى ذلك يرجع إلى وَلَع الخليفة الآمر بالمواكب والاحتفالات والأعياد وإلى استعداد الوزير المأمون البطائحى إلى تلبية رغبات الخليفة فى هذا المجال .

المَوَاكِبُ الاحْتفالية زَمَن الفاطميين

وتجدر الإشارة إلى أن رسوم البلاط الفاطمى كانت تتضمَّن عددًا من المواكب الاحتفالية بعضها دينى مثل : ركوب أول رمضان وركوب أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان وركوب عيد الفطر وركوب عيد النَّحْر . وبعضها الآخر مدنى مثل : ركوب أوَّل العام وركوب تخليق المِقْيَاس وركوب فَتْح الخليج .

فالعادة أن يحتفل المسلمون طوال العام بعيدَىْ الفِطْر والأَضْحَى ، وهما العيدان اللذان يحتفل بهما المسلمون فى كل مكان . وإلى جانب هاذين العيدين كانت العادة فى مصر الفاطمية أن يُحْتَفَل كذلك « برأس السنة الهجرية » (أول المحرم) باحتفال ليلى يستمر إلى اليوم التالى « أوَّل العام » ، و « مولد النبى » (١٢ ربيع الأول) ، و « قافلة الحج ».وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الاحتفال « بليالى الوقود الأربع » . كما أن « صَوْم رمضان » كانت تصحبه بعض الرسوم فى البلاط الفاطمى خاصة وقت « سُحُور » الخليفة[1] .

أما إحياء ذكرى المناسبات الشيعية فقد كانت عديدة على رأسها : « حُزْن عاشوراء » (١٠ محرم) حيث يُمَدُّ فيه سماط يعرف « بِسمَاط الحُزْن » ،

---

[1] ابن المأمون : أخبار ٨٢ - ٨٣ ، الخطط ١ : ٤٩١ - ٤٩٢ .

وكذلك « مَوْلد الحُسَيْن » (٥ ربيع الأول) و « مَوْلد السَّيِّدة فاطمة » (٢٠ جمادى الآخر) ، و « مَوْلد الإمام على » (١٣ رجب) و « مَوْلِد الحسن » (١٥ رمضان) و « مَوْلِد الإمام الحاضر » (وهو الثانى عشر من المحرم بالنسبة للآمر بأحكام الله) . ويُطْلق على هذه الموالد الخمسة الأخيرة بالإضافة إلى « المولد النَّبوى » : « المَوَالِد الستة » أما آخر هذه الاحتفالات الشيعية « فعيد غَدير خُمّ » (١٨ ذى الحجة)[١] .

وكعادة سابقيهم كان الفاطميون يحتفلون بأعياد النيل حيث كان « كَسْرُ الخليج » مناسبة لخروج الجماهير للاستمتاع بمنظر النيل ومشاهدة الخليفة وهو ينظر هذا الاحتفال . ويدخل فى هذا النوع من الاحتفالات رأس السنة القبطية أو « النَّوْرُوز » (أول توت) الذى يتوافق قدومه مع أقصى ارتفاع للفيضان .

كذلك فقد كان الخلفاء الفاطميون يُبْرزون بحضورهم قيمة الاحتفالات الشعبية التى كانت تصحب بعض الأعياد القبطية مثل : « المِيلَاد » و « الغِطَاس » و « خميس العَهْد » الذى كان مناسبة تَضْرب فيها الحكومة الفاطمية قطعًا صغيرة ذهبية تسمى « خراريب الذَّهَب »[٢] .

ميزانية الاحتفالات الفاطمية .

وبالطبع فإن كل هذه الاحتفالات لم تكن تمر دون إرهاق ميزانية الدولة الفاطمية . فبمطالعة « الاسْتيمار » أو « الرُّوزْنامَج » الذى يتضمَّن ما أُنْفِق عَيْنًا من بيت المال فى مُدَّة أوَّلها محرم سنة ٥١٧ وآخرها سَلْخ ذى الحجة منها (أول مارس ١١٢٣ – ١٨ فبراير ١١٢٤) ، والذى حفظه لنا ابن المأمون فى

---

(١) انظر فيما يلى ص ٢١٧ . Wiet , G., CIA Egypt II, pp. 176 - 177 , Fu'âd Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 503 - 505.

(٢) ابن المأمون : أخبار ٩٥ ، الخطط ١ : ٤٥٠ ، Balog , P., « Monnaies islamiques rares fatimides et ayyubides » , *BIE* XXXVI (1953 - 54) , pp. 328 - 329.

تاريخه ، نستطيع أن نلحظ حجم المبالغ المنصرفة فى هذا العام والذى يبدأ بعد خمسة عشر شهرًا فقط من تولّى المأمون البطائحى الوزارة . فقد بلغ حجم المنصرف عينًا « أربعمائة ألف وثمانية وستون ألفا وسبعمائة وتسعون دينارًا ونصف من جملة خمسمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارًا ونصف » (٤٦٨ , ٧٩٠) وفى حقيقة الأمر فقد وُفّر من أبواب هذا الاستيمار ٩٨,٣٩٧ دينارًا حملت إلى الصناديق الخاص برسم المهمات العسكرية الاستثنائية .

أما القسم الثانى من هذا الرُّوزْنامج فقد بلغ مائتى ألف ومائة دينار خُصِّصت « للديوان المأمونى » الذى ابتلع بذلك أكثر من رُبْع مجموع نفقات الدولة وهو يتضمَّن مصروفات الوزير وإخوته وأولاده بالإضافة إلى ما يُحْمَل مشاهرة إلى موظفى الدولة[1] .

وفى الوقت نفسه فإننا نعلم كذلك المُنْفق فى مطابخ وأسْمِطَة الخليفة الآمر فقد كان يُذْبح له فى كل شهر خمسة آلاف رأس من الضَّأْن ثَمَن الرأس ثلاثة دنانير ، غير ما يذبح من الأنواع الأخرى[2] . ومن جهة أخرى يذكر لنا ابن المأمون أن عدد ما ذُبِحَ فى عيد النَّحْر وعيد الغَدِير سنة ٥١٥ بلغ ألفين وخمسمائة وأحد وستون رأسًا تفصيله ، نوق : مائة وسبعة عشر رأسًا ، بَقَر : أربعة وعشرون رأسًا ، جاموس : عشرون رأسًا وهو عدد ما كان يذبحه الخليفة بيده فى المُصَلَّى والمَنْحَر وباب السَّاباط . بينما كان الجزَّارون يذبحون ألفين وأربعمائة رأس من الكباش[3] .

---

[1] ابن المأمون : أخبار ٧٠ – ٧١ ، الخطط ١ : ٣٩٩ ، المقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢١٢ و ، Wiet , G., *op. cit.*, p. 181 ; Fu'ād Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 506 - 508 وقارن ذلك بالاستيمار المعمول فى زمن الوزير اليازورى فى منتصف القرن الخامس (الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩) .

[2] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٣١ .

[3] ابن المأمون : أخبار ٢٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٦ وقارن بما ذبحه الخليفة فى سنة ٥١٦ (ابن المأمون ٤١ – ٤٢ ، الخطط ١ : ٤٣٦) .

وهذا بالطبع غير ميزانية دار الفِطْرَة والأسْمِطَة والكُسْوَات التى كانت توزَّع فى المَناسبات المختلفة والتى أمدَّنا ابن المأمون بمعلومات غنية عنها[١] .

ولن أجد لوصف رسوم هذه الاحتفالات والمواكب وترتيب مجلس المُلْك أفْضَل وأدَقّ مما قدَّمه ابن الطُّوَيْر ، مصدرنا الوحيد لذلك ، بأسلوبه الخاص والذى يجده القارىء فيما يلى من صفحات هذا الكتاب[٢] .

الطبوغرافية الداخلية للقصر الفاطمى

ويبقى موضوع يجب أن نستخرجه من خلال نصّ ابن الطُّوَيْر خاص بالطُّبوغرافية الداخلية للقصر الفاطمى ، حيث قدَّم لنا ابن الطُّوَيْر مادة غنية تساعدنا على تَصَوُّر تخطيط قاعة الذَّهَب والإيوان حيث كان يُعْقَد المَجْلِس ، وتعريف السِّهْدِلّا والشُّبَّاك ، حيث كان يُحْتَفَل بيوم عَرْض الخيل ، وهى المواضع التى جرى فيها القسم الأكبر من رسوم أو تقاليد هذه الاحتفالات .

القَاعَةُ والمَجْلِس

ذَكَرْتُ فى مُقَدِّمة الكتاب أن ابن الطُّوَيْر يُقَدِّم لنا خلال وَصْفه للاستعدادات المصاحبة لركوب الخليفة فى المواكب العظام ، وكذلك عند ذكره لهيئة الخلفاء فى الجلوس العام بمجلس المُلْك ، ووَصْفِه للأسْمِطَة التى كانت تُمَدُّ فى قاعة الذَّهَب فى المناسبات المختلفة ، وَصْفًا دقيقًا لترتيب هذه القاعة ولمواضع أخرى من القصر مما يعين على إعادة بناء الطبوغرافية الداخلية لجزء من القصر الفاطمى[٣] .

---

(١) نفسه ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٥ – ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٨ – ٥٥ ، ٦٦ – ٦٨ .

(٢) قدمت لنا الدكتورة باولا سوندرز عرضًا شاملًا للمراسم والمواكب سواء عند الأمويين أو العباسيين أو الفاطميين (انظر ، Sanders , P., *EI²*., art . *Marâsim* VI, pp. 502 - 505 ; art. *Mawâkib* VI , pp. 841 - 843).

(٣) انظر أعلاه ص ٩° .

وتتّفق الأوصاف التى يقدِّمها لنا ابن الطُّوَيْر ، بل تتطابق فى كثير من الأحيان ، مع الأوصاف التي نعرفها لهذه القاعة والتى أُمدَّنا بها على التوالى : المُسَبِّحِى وناصرى خسرو وغليوم أُسْقُف صور Guillaume de Tyr ، مما يعيننا على تقديم وصف متكامل للترتيب الداخلي لبعض أجزاء القصر الفاطمى وعلى الأخص لقاعة الذَّهَب والإيوان الكبير والسِّهْدِلِّى والدَّهاليز الطوال والشُّبَّاك .

ولكى نستطيع التعرُّف على نَمَط بناء هذه المواضع ، فإنه يجب علينا أن نتعرَّف على نَمَط وأسلوب البناء السائد فى مصر قبل الفاطميين وعلى الأخصّ فى الفُسْطَاط ، وكيف عرف هذا النَمَط طريقه إلى القاهرة فى زمن الفاطميين . فقد أسفرت الحفائر التى قام بها على بك بهجت وألبير جبرييل Albert Gabriel فى الفُسْطاط بين سنتى ١٩١٢ و ١٩٢٠ ، وكذلك الحفائر التالية والتى قامت بها لجنة حِفْظ الآثار العربية سنة ١٩٣١ والهيئة العامة للآثار سنتى ١٩٦٤ و ١٩٧٢ ، ثم الحفائر التى قادها الأستاذان جورج سكانلون G. Scanlon وفلاديسلاف كوبياك V. Kubiak بين سنتى ١٩٦٦ و ١٩٨٢ ، أسْفَرَت عن الكشف عن عددٍ من الدور التى يرجع تاريخها إلى العصرين الطولونى والفاطمى . وتتكوَّن هذه الدور ، فى معظمها ، من نظام هندسى قائم على محورين متعامدين يلتقيان فى وَسَط « صَحْن » مكشوف ، مربع أو مستطيل ، فى كل جنب من جوانبه « رِوَاق » ذو ثلاث فتحات تختلف فى الضيق والسَّعَة ، فالفتحة الوسطى أَوْسَع من الفتحتين الجانبيتين ويفصلها عنهما كَتِفان مبنيان بالآجر ، ويتراوح عرض هذا الرواق بين متر وثمانين سم ومترين . وفى سَمْت الرِّواق « القَاعَة » وهى قاعة كبيرة يزيد طولها عن عرضها وتكتنفها من جانبها حجرتان صغيرتان منعزلتان عنها (أى أنها مجموعة مكوَّنة من رِوَاق داخله قاعة) .

وفى الجوانب الثلاثة الأخرى من الصَّحْن ، فى محور كل جانب ، « أواوين » تختلف فى الامتداد إلى الداخل فتكون منها تارة قاعات وتارة أخرى ، وهو الأغلب ، أواوين صغيرة أو صُفَف[1] .

---

(١) على بهجت وألبير جبرييل : حفريات الفسطاط ، القاهرة ١٩٢٨ ، ٨٥ — ٨٩ . وانظر كذلك عباس حلمى كامل : تطور المسكن المصرى الإسلامى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة .

هكذا وصف على بهجت شكل الدور التى كشفت عنها حَفَائِر الفُسْطاط ، وقد أطلق كريزويل Creswell على العنصر الذى وصفه بهجت بأنه إيوان مفصول عن الصحن برواق ذى ثلاث فتحات The T-plan أى المخطط على شكل الحرف T أو « البيت السامَّرائى » أى المبنى على طراز سامرًّا فى العراق[١] .

وقد استمدَّت المنشآت الملكية الطولونية والفاطمية ، مثلها مثل الدور التى كُشِفَت فى الفسطاط ، طِرازها من طِرَاز سامرًّا (سُرَّ من رأى) فى البناء الذى أدْخَل على فن العمارة الإسلامية ذلك الأسلوب الذى يَنْسِب المؤرِّخ والجغرافى المَسْعُودى ، إحداثه إلى الخليفة المتوكِّل العبَّاسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) فقد ذكر أنه « أُحْدَث فى أيَّامه بناءً لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف « بالحِيرى والكُمَّيْن والأَرْوِقَة » (أخذه عن ملوك الحِيرَة من النعمانية من بنى نَصْر ، حيث أحْدَث أحدهم بنيانًا على صورة الحرب للَهَجِه بها) « فكان الرِّوَاق فيه مَجْلِس الملك وهو « الصَّدْر » ، و « الكُمَّان » مَيْمَنَة ومَيْسَرة ، ويكون فى البيتين اللذين هما الكُمَّان مَنْ يقرب إليه من خواصّه ، وفى اليمين منهما خِزانة الكُسوة وفى الشمال ما احتيج إليه من الشراب ؛ والرِّواق قد عمّ فضاؤه الصَّدْر ، والكمَّيْن والأبواب الثلاثة على الرِّواق ؛ فسمِّى هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيرىّ والكُمَّيْن إضافة إلى الحيرة ، واتَّبع الناس المتوكِّل فى ذلك ائتمامًا بفعله واشتهر إلى هذه الغاية »[٢] .

وقد اعتاد الباحثون على القول بأن هذا الطِّراز من البناء هو عبارة عن إيوان مصمَّم على شكل حرف الـ T اللاتينى ومدعم بغرفتين ملاصقتين واقعتين على جانبى القسم الرئيسى للإيوان والممتد إلى الداخل والذى يُطْلَق عليه

---

(١) Creswell , K.A.C., *MAE* I, pp. 121, 128.

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر (نشرة شارل بلَا - بيروت ، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦ - ١٩٧٩) ٥ : ٦ .

« الصَّدْر » (والذى يماثل ذيل حرف الـ T) وهو الجزء الذى يُرَتَّب فيه مكان الاجتماع والمعروف « بالمَجْلِس » . وفى طراز سامرًّا ، كما يعرضه المسعودى ، فإن الرِّواق هو مجموع البناء الذى يفتح على الصَّحْن بثلاثة أبواب (واحد فى مواجهة صَدْر المجلس والاثنان الآخران على الجانبين فى امتداد الغرفتين الملحقتين)[١] . وإذا كان الرِّواق حقًّا هو الطابع المميِّز لطراز سامرًّا فيمكننا القول بأن « بيت الذَّهب » الذى عمله خُمَارَوَيْه فى داره ، كان على هذا المِثَال بما أن المقريزى يصفه بأنه مجلس عَمَله برواق داره[٢] .

ولا شك أن « قَاعَة الذَّهَب » الملحقة بالقصر الفاطمى (حيث كان الخلفاء يجلسون الجلوس العام يومى الاثنين والخميس)[٣] كانت مصمَّمة على هذا الطِّراز الذى انتقل إلى عمائر القاهرة من الفُسْطاط ، بل يبدو أن هذا التصميم كان الطِّراز السائد فى هذا العصر . فقد كَشَفَت الحفائر التى أجريت فى مدينة صَبْرة المنصورية بتونس بقرب القيروان ، عن قاعة فى قصر الخليفة المنصور بالله الفاطمى تشبه القاعات الموجودة فى دور الفسطاط والمبنية على طراز سامرًّا[٤] ، وهذا لا يعنى وجود تبادل فنى بين مصر وإفريقية قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، ولكن يثبت أن هذا الطِّراز كان شائعًا فى كثير من أقاليم العالم الإسلامى فى هذا الوقت . ورغم أن المُسَبِّحى يُطْلِق لفظ « قَصْر » على هذا الموضع ، « قصر الذَّهَب »[٥] ، فإنه اعتبارًا من ابن المأمون[٦] وابن

---

(١) Garcin , J.Cl., *Habitat médiéval et histoire urbaine* , p. 170.

(٢) المقريزى : الخطط ١ : ٣١٦ . وانظر وصف المجلس فى قصور العراق عند Grabar , O., *La formation de l'Art Islamique* , Paris 1984 , pp. 206 - 208.

(٣) انظر فيما يلى ص ٢٠٥ .

(٤) Zbiss , S.M., « Mahdia et Ṣabra Mansouriyya - Nouveaux documents d'art fatimide d'Occident » , *JA* CCXLIV (1956) , pp. 85 - 88 ; Marçais , G., *EI²*., II, pp. 882 - 83.

(٥) المسبحى : أخبار مصر ٢٨ ، ٣٦ .

(٦) ابن المأمون : أخبار ٤٣ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٩ وكذلك عمارة اليمنى : النكت العصرية ٣٢ ، ٧٤ .

الطُّوَيْر نجد لفظ « قاعة » هو المستخدم فى التدليل عليه . ويذكِّرنا وصف ابن الطُّوَير لترتيب قاعة الذَّهَب بوصف « الحيرى والكُمَّيْن والأروقة » الذى وصفه المَسْعُودى . فقد كان الانتقال من أحد « فرْدَى الكم » بها إلى « الصَّدْر » (حيث يوجد المَجْلِس) يتم عبر « المَقْطَع » أو « مَقْطَع فَرْد الكم »[1] ، الذى نعرف من خلال إحدى أوراق الجنيزة ، التى أرَّخها Goitein سنة ٥٨٦ / ١١٩٠ ، أنه كان بابًا مزودًا بمصراع من الخشب المنقوش[2] أو بابًا مطويًا[3] ، يصل الجزء الرئيسى للإيوان ، وهو الصَّدْر ، مع كلٍ من فَرْدى الكُمّ ، أى الغرفتين الملحقتين[4] .

ونعرف من خلال وصف ابن الطُّوَيْر لهيئة جلوس الخلفاء فى المجلس بقاعة الذَّهب ، أن الجزء الرئيسى للقاعة أو الصَّدْر (حيث كان يُعْقد المجلس) لم يكن من الممكن مشاهدته من الصَّحْن إلَّا بعد فتح باب المجلس ورَفع الستر الموجود عليه بإشارة من « صاحب المَجْلِس » ، ولا يتم ذلك إلَّا إذا تهيأ جلوس الخليفة على السرير فى صدر المَجْلِس[5] .

---

(١) انظر فيما يلى ص ٢٠٨ . والمقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٤ .

(٢) « عليه وعلى كميه أبواب منقوشة » . Sayed , H.I., « The Development of the Cairene *Qāʿa* : Some Considerations », *An. Isl.* XXIII (1987) , p. 36.

(٣) *Ibid.*, p. 36.

(٤) Garcin , J. Cl., *op. cit* ., pp. 170 , 171.

(٥) « فإذا تهيأ الجلوس استدعى الوزير من المقطع إلى باب المجلس المذكور وهو مغلق وعليه ستر .... وخرج من المقطع الذى يقال له فرد الكم ، فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس .... فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالسًا ...... وبعد انقضاء المجلس يُرخى الستر ويُغْلق باب المجلس إلى يوم مثله . (انظر فيما يلى ص ٢٠٧ - ٢٠٨) .

وقد استجد تقليد جديد ، بعد وفاة الوزير الأفضل ، فأصبحت سجلات تولية الوزراء تقرأ على باب هذا المجلس (المعروف بمجلس اللُّعْبَة) بعد أن كانت قبل ذلك تقرأ بالإيوان ، وكان سجل تولية المأمون البطائحى هو أول سجل قرئ هناك . (ابن المأمون : أخبار ٢١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ والاتعاظ ٣ : ٧٥ والمقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢٠٦ و) .

ونعرف كذلك من وَصْف ابن الطُّوَيْر لسِمَاط العيد ، الذى كان يُمَدّ فى قاعة الذَّهَب ، أن طول القاعة لم يكن بعمق القصر عموديًا على باب الذَّهَب ، وإنما كان موازيًا لواجهة القصر الغربية فيما بين باب الذَّهَب (المؤدى إلى هذه القاعة من خلال الدَّهاليز) والمُحَوَّل الذى كان يُدْخَل إليه من باب البحر (وهو الباب الذى يلى باب الذَّهَب من ناحية الشَمَال) . فيذكر ابن الطُّوَيْر أن سِمَاط رمضان كان يُبْسَط فى طول القاعة مادًّا من الرِّواق إلى ثلثى القاعة[١] ، أما بالنسبة لسِمَاط العيد فقد كان سرير الملك يُنْصَب أمام باب المَجْلِس فى الرِّواق (وتُنْصب عليه مائدة من فضة يقال لها المُدَوَّرة) ثم يُنْصب السِّماط أمام السرير إلى باب المَجْلِس قبالته ويُعْرَف بالمُحَوَّل طول القاعة[٢] . وكان يسبق القاعة دِهْليز سمَّاه ابن الطُّوَيْر وساويرس بن المقفع « دِهْليز العمود »[٣] ، يبدو أنه رواق بأعمدة مما يُعْطى انطباعًا بأن القاعة كانت فى غاية الاتساع وأنه كان من الضرورى وجود دعائم لرفعها مكوَّنة من عددٍ من الأعمدة ، وهو ما يتَّفق مع وصف غليوم أسقف صور كما نقله إلى الفرنسية جستاف شُلُمْبِرْجيه ، يقول : « Une vaste cour découverte qu'entouraient de magnifiques portiques à colonnades » أى « فناء واسع مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة »[٤] . وكانت الدَّهاليز التى تقود إلى دِهْليز العمود وقاعة الذَّهَب حالكة الظلام وهذا ما دَفع الوزير العادل بن السَّلار ، حين استوحش من الخليفة الظَّافر ، إلى « نقل جلوسه من القاعة التى يُدْخَل فى دهاليزها المظلمة إلى الجلوس بالإيوان فى البراح والسعة »[٥] وكانت

---

(١) انظر فيما يلى ص ٢١٢ .

(٢) انظر فيما يلى ص ٢١٣ .

(٣) فيما يلى ص ٢٠٦ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٥٦ .

(٤) Schlumberger , G., *Campagnes du Roi Amaury Ier de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle* , Paris 1906 , p. 119.

(٥) انظر فيما يلى ص ٥٩ .

شكوك العادل بن السَّلار فى مكانها فقد قُتِل بعد ذلك الوزير الصالح طلائع ابن رُزِّيك فى سنة ٥٥٦ « فى باب السِّرداب من الدِّهْليز المظلم الذى يُدْخل منه إلى القاعة »[١] . كما أن الحاكم بأمر الله سبق وقتل خادمه عُطُوف فى سنة ٤٠١ بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دِهْليز القصر واحتزوا رأسه[٢] . ويتَّفق هذا الوصف تمامًا مع وصف غليوم أسقف صور الذى أطلق عليها « longues et etroites allées voûtées , tout à fait obscures , où l'on ne voyait goutte » أى « دهاليز طويلة وضيِّقة ذات أقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبيَّن فيها شيئًا »[٣] .

وكان دِهْليز العمود يقود إلى « مَقْطَع الوزارة » حيث توجد المرتبة المختصة بالوزارة وعندها الباب المعروف بباب السِّرداب والذى جرى الرَّسْم بإغلاقه لوزراء السيوف والأقلام[٤] ، وكانت حمَّام القصر تقع من خلف هذا الباب[٥] .

ويبدو أن أغلب أبواب القصر الفاطمى كانت تفتح على دَهَاليز طويلة مظلمة تقود سواء إلى قاعات القصر أو أفنيته المختلفة . وقد أدرك المقريزى أحد هذه الدَّهاليز فى مطلع القرن التاسع يقول وهو يصف باب الرِّيح ، وهو باب القصر الذى يفتح فى واجهته الشمالية : إنه « كان بابًا مربعًا يُسلك فيه من دِهْليز مستطيل مظلم إلى حيث المدرسة السابقية ودار الطَّوَاشى سابق الدين وقصر أمير سلاح وينتهى إلى ما بين القصرين تجاه حمام البَيْسَرى » وأنه

---

(١) المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٤ ، وقارن : عمارة : النكت العصرية ١٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣١٢ ، ساويرس : تاريخ ٣ / ١ : ٥٦ وانظر كذلك اتعاظ ٢ : ١٨٣ .

(٢) المسبحى : نصوص ضائعة ٣٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٤ ص ٦ ، ١٣ – ١٤ .

(٣) Schlumberger , G., *op. cit.*, p. 118 .

(٤) ابن ميسر : أخبار ٨٩ .

(٥) نفسه ٩٠ .

كان دِهْليزًا « عريضًا يتجاوز عرضه فيما أُقَدِّر العشرة أذرع [نحو ستة أمتار] فى طول كبير جدًا »[١] [نحو اثنين وثلاثين مترًا] .

ويتَّضح كذلك من الأوصاف التى ساقها ابن الطُّوَيْر وما يُسْتَقْرأ من نصوص المقريزى أن القاعات الرئيسية للقصر كانت غالبًا على شكل إيوانات عميقة مفتوحة على أفْنِيَة أو على أرْوِقَة مستعرضة تطلّ عليها ولم تَتَّخذ بعد شكل القاعات المغلقة . فعندما نَصَب المعز لدين الله « الشَّمْسَة » التى عملها للكعبة على إيوان قصره يوم عَرَفَة سنة ٣٦٢ « رآها الناس فى القصر ومن خارجه لعلو موضعها »[٢] . وهو ما يدل عليه كذلك شكل « قاعة سِتّ الملك » ، كما سيتضح بعد قليل . وبذلك فإن طراز القاعات المُغَطَّى لم يظهر فى العصر الفاطمى ، فالمقريزى عندما يذكر « قاعة سِتّ المُلْك » فإنه يقصد بالقاعة الفناء المتوسط والإيوانات الأربعة حوله[٣] ، وعلى ذلك فإن الفناء بما حوله يُعَدُّ بمثابة قاعة واحدة متكاملة ويمثل الطِّراز المعروف للقاعات فى العصر الفاطمى والذى انتشر فى الفترة بين إقامة القصور الفاطمية وإقامة « قاعة الدَّرْدير » فى النصف الأول للقرن السادس / الثانى عشر ، وهى بداية ظهور القاعات المُغَطَّاة فى القاهرة ، والذى أُخذ عنه تصميم المدارس المتعامدة فى العصر المملوكى الأول[٤] .

أما مكان الشَرَف بقاعة الذَّهب ، الذى كان يقف به كبار رجال الدولة ، فهو آخر الرِّواق الذى يُطْلِق عليه ابن الطُّوَيْر « الإفْريز العالى عن أرض القاعة » وكان يقع خارج باب المَجْلِس ، المعروف بِمَجْلِس اللُّعْبَة ، بامتداد الرِّواق ويعلوه ساباط على عقود قناطر لتدعيم القاعة[٥] . كذلك فقد كان على

---

[١] المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٤ .
[٢] المقريزى : اتعاظ ١ : ١٤٠ – ١٤١ .
[٣] الخطط ٢ : ٤٠٦ .
[٤] Fu'âd Sayyid , A., *op. cit.*, pp. 346 - 352.
[٥] انظر فيما يلى ص ٢٠٨ .

جانبى « دِهْليز العمود » عددٌ من المصاطب تُوَصَّل بعضها ببعض بدِكَك يُمَدُّ عليها سِمَاطُ حُزْن عاشوراء[١] .

وإذا كنا قد فَقَدْنا كل أثر للقصر الفاطمى وبالتالى لقاعة الذَّهَب ، فقد حَفِظَ لنا الزمن مُخَطَّط « قاعة سِتّ المُلْك » – إحدى قاعات القصر الغربى الصغير – حفظها اتصالها بمجموعة قلاوون الشهيرة التى بنيت على جزء من أرض القصر الغربى الصغير . فقد تمكَّن هرتس باشا Herz Pacha خلال حفرياته بمارستان قلاوون ، فى أول هذا القرن ، من اكتشاف التخطيط الأصلى لهذه القاعة وهو يثبت بما لا يدع مجالًا للشك أنها بنيت على طراز سامرَّا الذى بنيت عليه قاعة الذَّهَب[٢] .

ولاشك أن دائر قاعة الذَّهَب كان يوجد إفريز من الخشب المحفور (Bois sculptés) تحت سقف القاعة كذلك الإفريز المكتشف فى مارستان قلاوون ، ويظن الباحثون أنه كان يدور كإفريز تحت سقف قاعة ست الملك . وتحمل هذه الأخشاب مناظر طَرَب أو موسيقى أو صيد أو قتال وكذلك صور طيور وحيوانات ، وكانت فى الأصل مدهونة بالألوان مما كان يُظْهر دقائقها ويزيدها وضوحًا[٣] .

وإذا عدنا إلى استخدام مصطلح « المَجْلِس » للتدليل على « القاعة » فسنجد أن المجلس قد ذُكِرَ فى حُجَّتى وَقْف مؤرختين فى سنتى ٦٥٨ / ١٢٦٠

---

(١) انظر فيما يلى ص ٢٢٤ .

(٢) Herz, M., *Die Baugruppe des Sultans Qalaun in Kairo (Abhandlungen des Hamburgischen Kolonialinstituts, Band XXXII)*, Friederichsen, Hamburg 1919, pp. 25 - 26 ; Gabriel, A., *Les fouilles d'al - Fousṭāṭ et les origines de la maison arabe en Egypte*, Paris 1921, pp. 64 - 68.

(٣) Herz, M., « Boiseries fatimides aux sculptures figurales », *Orientalisches Archiv* III (1913), pp. 170 - 171.

و ٦٨٤ / ١٢٨٥ باسم « المَجْلِس الحيرى بكُمَّيْن »[١] ، ولكن كان يُكْتَفَى فى أغلب الأحيان بإطلاق كلمة « المَجْلِس » فقط للتدليل على طراز « الحيرى والكمين » الذى أحدثه المتوكل[٢] . يدل على ذلك ما ذكره الأمير أسامة بن منقذ فى سيرته الذاتية يقول : إنه أثناء إقامته بالقاهرة انهزم رجل سودانى إلى علو داره والرجال بالسيوف خلفه ، فأشرف على « القاعة » من ارتفاع عظيم .... ثم قفز من السطح على شجرة نَبْق فى الدار « ثم نزل ودخل من « كم مجلس » قريب منه ... »[٣] . كما أن وثيقة الجنيزة المؤرخة فى سنة ٥٨٦ / ١١٩٠ ، والسابق الإشارة إليها ، تصف إحدى دور الفسطاط بأنها تحوى قاعة عريضة مكوَّنة من مجلسين متقابلين ، وتشير كذلك إلى الكُمَّيْن والأبواب ولكنها لا تشير إلى الرِّواق الذى يبدو أنه استعيض عنه بطريقة ما بلفظ « قاعة » وهو اللفظ الذى أصبح يدل فيما بعد على المجلس[٤] . وتبعًا لحُجَج الأوقاف فقد تحوَّل الكثير من « المجالس » فى فترة متأخرة إلى « إيوانات »[٥] .

السّهْدِلّا والشُّبَّاك والإيوَان

فى أثناء وَصْفِه « ليوم عَرْض الخَيْل » ، وهو اليوم الذى يسبق الاحتفال بركوب أوَّل العام ، يقدِّم لنا ابن الطُّوَيْر وصفًا لدِهْليز باب المُلْك حيث كانت توجد « السِّهْدِلّا » و « الشُّبَّاك » ، اللذَين يُتَوَصَّل إليهما من باب العيد .

وبابُ العيد هو باب القصر الذى كان يخرج منه موكب الخليفة إلى مُصَلَّى العيدين يومى عيد الفِطْر وعيد النَّحْر . ويدخل منه الوزير ورجال الدَّولة إلى

---

(١) Sayed , H.I., *op. cit.*, p. 36.

(٢) *Ibid.*, p. 38.

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار (تحقيق قاسم السامرائى – بيروت ١٩٨٧) ٣٢ .

(٤) Garcin , J. Cl., *op. cit.*, p. 171.

(٥) Sayed , H.I., *op. cit.*, p. 38.

الفناء الداخلى للقصر(١) ، الذى كان يتم فيه عرض الخيل ، عبر دِهْليز باب المُلْك . وكان يفتح فى الواجهة الشرقية للقصر المُطِلَّة على رَحْبَة باب العيد « ويُدْخل منه إلى ساحة عظيمة »(٢) . فقد كان الخليفة يخرج فى هذا اليوم راكبًا من مكانه فى القصر و « ينزل فى السَّهْدِلَّا » بِدِهْليز باب المُلْك الذى فيه الشُّبَّاك »(٣) .

و « السَّهدلى » أو « السَّدلى » أو « السِّدِلَّا » لَفْظ فارسى معرَّب(٤) . ذكر ابن منظور أن « السِّدِلِّى على فِعِلِّى معرَّب وأصله بالفارسية سهد له [وقد ورد بهذا الرسم فى مخطوطة خزينة] كأنه ثلاثة بيوت فى بيت كالحيرى [فى الأصل الحارى] بكُمَّيْن(٥) وهذا يُذَكِّرنا مرة أخرى بالطِّراز الذى أَحْدَثَه الخليفة المتوكل وأصبح يطلق عليه « المَجْلِس » . وقد صَوَّر إنسترونزف السِّدِلَّا الفاطمية ببناء مغلق من ثلاثة جوانب ومفتوح من الجانب الرابع حيث كان يوجد « الشُّبَّاك » ، وحدَّد موضعها على وجه التقريب فى وسط القصر بين باب العيد وباب البحر(٦) .

أما « الشُّبَّاك » فأشبه بمقصورة عليها من ظاهرها ستر يرفعه اثنان من الأستاذين المُحَنَّكين (زمام القصر وصاحب بيت المال) متى حضر الوزير وجلس على الكرسى الكبير الحديد الموجود تحت الشُّبَّاك ، وفور رفعها يُرَى الخليفة جالسًا فى المرتبة الهائلة به(٧) .

ويُفْهم من كلام ابن الطُّوَيْر أن باب العيد كان يؤدِّى إلى الشُّبَّاك(٨) عن طريق الدَّهاليز الطِّوال ، وأن السَّهْدِلَّا كانت بِدِهْليز باب المُلْك الذى فيه

---

(١) انظر فيما يلى ص ١٥٤ .

(٢) انظر فيما يلى ص ٥٧ .

(٣) انظر فيما يلى ص ١٥٤ .

(٤) الجواليقى : المعرب ٢٣٥ .

(٥) ابن منظور : لسان العرب ١٣ : ٣٥٥ .

(٦) Canard, M., *La procession de nouvel an*, pp. 376 - 77. وانظر ابن المأمون : أخبار ٨٢

(٧) انظر فيما يلى ص ١٥٤ .

(٨) انظر فيما يلى ص ١٨٢ ، ١٨٨ .

الشُّبَّاك[١] . كذلك فتبعًا لما أورده ابن الطُّوَيْر فقد كان يوجد شُبَّاك آخر بالإيوان الكبير يجلس فيه الخليفة[٢] أو أنهما شُبَّاك واحد يقع بين الإيوان والسِّهْدِلّا .

ولم يكن الجلوس بالشُّبَّاك من مفردات الرُّسوم الفاطمية ، فقد كان بقصر الخلافة فى بغداد ، فى نفس الفترة ، « شُبَّاك » . فنحن نعرف أنه خلال حركة البَسَاسِيرى التى أدَّت إلى الاعتراف المؤقت بالفاطميين والدَّعْوة لهم من على منابر بغداد سنة ٤٥٠ ، كان من بين ما أخرجه البَسَاسِيرى من قصر الخلافة وأرسله إلى القاهرة « الشُّبَّاك » الذى « كان يجلس فيه [الخليفة القائم بأمر الله العباسى] ويتكئ عليه » وهو من الذَّهَب[٣] . فلما شَيَّد الأفضل بن بدر الجمالى دار الوزارة الكبرى جعل هذا الشُّبَّاك بها يجلس فيه الوزير ويتكئ عليه[٤] .

وقد وردت « السِّهْدِلّا » فى أوراق الجنِيزَة وفى حجج الأوقاف بمعنى مَصْطَبَة من الحجر بارتفاع نصف قدم ، أو موضع استراحة ترتفع فيه الأرض بانتظام ومتساوية العمق و العرض مفروشة بمساند وملاءات على جانب أو اثنين متقابلين من جوانبها[٥] .

أما « الإيوان الكبير » فقد بناه الخليفة العزيز بالله فى سنة ٣٦٩ بالقصر الكبير الشرقى[٦] ، وكان يُتَوصَّل إليه من باب العيد وكذلك من دِهْليز باب الدَّيلم . وكان به الشُّبَّاك الذى يجلس فيه الخليفة ويتكئ عليه وقت قراءة السِّجِلّات بالإيوان[٧] .

---

(١) انظر فيما يلى ص ٥٤ ، ١٥٤ .
(٢) انظر فيما يلى ص ٣٤ ، ٥٩ ، ٢١٣ .
(٣) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ١٩٦ .
(٤) المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ .
(٥) Goitein ,S.D.,*A Med. Soc.* IV ,p.68. وثيقة وقف السلطان الغورى (رقم ٨٨٦ أوقاف) ورقة ٦٤ .
(٦) المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٨ .
(٧) انظر فيما يلى ص ٣٤ .

وبهذا الإيوان كان جلوس الخلفاء الجلوس العام بمجلس المُلْك قبل انتقال الجلوس نهائيًا إلى قاعة الذَّهَب فى يومى الاثنين والخميس فى زمن الخليفة الآمر[١] ، باستثناء فترة تولِّى العادل بن السَّلار الوزارة للخليفة الظَّافر حيث أعاد الجلوس إلى الإيوان بعد أن استوحش من الخليفة[٢] . ويُفْهَم من نصّ المُسَبِّحِى أنه كان للإيوان صَحْنٌ يجتمع به الناس لتُقْرأ عليهم فيه السِّجِلَّات الصادرة عن الخليفة[٣] ، كما كان يُمَدّ فيه سِمَاط الفِطْرَة[٤] ، فقد كانت الفِطْرَة تعمل به وتُفَرَّق منه إلى أن عُمِلَت لها دار خاصة استقطعها المأمون البطائحى من اصْطَبْل الطَّارِمَة[٥] ، وكذلك كان يُعْمَل به الاجتماع والخطبة يوم عيد الغدير[٦] .

وعندما عطَّل الوزير الأَفْضَل العديد من رسوم الخلافة عندما سكن بمصر فى دار المُلْك كانت الفِطْرة تُعْمَل بمصر ، كما منع الخليفة من صلاة العيد بالمُصَلَّى ، وكان يحضر من مصر يوم العيد فيدخل القصر من باب العيد ويصلى صلاة العيد فى الإيوان ، يصلِّيها به القاضى ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة إلى أن تنقضى الخطبة فيدخل من باب المُلْك ويسلم على الخليفة لا يراه أحد ، ثم يخلع عليه إلى داره بمصر فيكون السِّماط بها مدى الأعياد[٧] .

والإيوانُ لغة هو البيت المؤزَّج ، أى المرتفع البناء غير المسدود الوجه . أى أنه قاعة مسقوفة بقبوة ، مفتوح مقدمها على بهو بعقد مقوَّس نصف دائرى ، أو مدبَّب أو منفوخ أو منبعج ، مغلق مؤخرها بجدار .

ولاشك أن فكرة بناء الأواوين انتقلت من فارس إلى العمارة الإسلامية فى العراق واستخدمت أول ما استخدمت فى عمارة القصور ، ثم أدخلت فى

---

(١) انظر فيما يلى ص ٢٠٥ .
(٢) انظر فيما يلى ص ٥٩ .
(٣) المسبحى : أخبار ٤ ، ٢٤ .
(٤) المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٨ .
(٥) نفسه ١ : ٤٢٦ .
(٦) نفسه ١ : ٣٨٨ .
(٧) ابن المأمون : أخبار ٢٤ .

الأبنية الدينية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وشاعت فى بيوت الصلاة بعد كثرة المساجد الجامعة فى المدينة الواحدة مما أدَّى إلى تصغير مساحات بيوت الصلاة تبعًا لذلك ، وأصبحت بعد ذلك طرازًا شائعًا فى بناء المدارس المتعامدة . ويُعَدّ بيت الصلاة فى مدرسة السلطان حسن أكبر إيوان أنشئ بالقاهرة[1] .

وللأسف فإننا لا نملك وصفًا لشكل الإيوان الفاطمى الكبير سوى الوصف الذى أورده المقريزى والذى يُفْهم منه أنه « بصدر هذا الإيوان كان الشُّبَّاك الذى يجلس فيه الخليفة ، وكان يعلو هذا الشُّبَّاك قبة » ... وكان به « ضِلْعا سَمَكَة إذا أقيما واربا الفارس بفرسه » بعثهما السلطان صلاح الدين هدية إلى بغداد[2] .

---

(1) أحمد فكرى : خصائص عمارة فى العصر الأيوبى (الندوة الدولية لألفية القاهرة) ١٦٨ - ١٧٢ ومساجد القاهرة ومدارسها ٢ : ٨٨ - ٨٩ .

(2) المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٨ .

الرموز والاختصارات

A = مخطوطة للخطط استخدمها Wiet على نسخته الخاصة .

B = مخطوطة أخرى استخدمها Wiet على نسخته الخاصة[1] .

ش = مطبوعة تاريخ ابن الفرات .

ف = مخطوطة تاريخ ابن الفرات .

م = اتعاظ الحنفا .

مخ . = مخطوطة .

مط = مطبوع .

بولاق = الخطط طبعة بولاق .

[ ] = ما بين المعقوفتين زيادة على الأصل .

* * *

AIEO = *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales* .

An. Isl. = *Annales Islamologiques* .

BEO = *Bulletin d'Etudes Orientales* .

BIE = *Bulletin de l'Institut d'Egypte* .

BIFAO = *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* .

BSOAS = *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* .

CIA = *Corpus Inscriptionum Arabicarum* .

---

[1] نسخة Wiet الخاصة موجودة بالمعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة .

CNRS = *Centre National de Recherches Scientifiques* (Paris) .

EI^{1} = *Encyclopédie de l'Islam* (I^{ère} édition) .

EI^{2} = *Encyclopédie de l'Islam* (2ème édition) .

GAL = *Geschichte der arabischen Litteratur* .

IC = *Islamic Culture* .

IFAO = *Institut Français d'Archéologie Orientale* .

IFD = *Institut Français de Damas* .

IJNES = *International Journal for Near Eastern Studies* .

JA = *Journal Asiatique* .

JAOS = *Journal of American Oriental Studies* .

JBBRAS = *Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society* .

JESHO = *Journal of the Economic and Social History of the Orient* .

MAE = *Muslim Architecture of Egypte* .

MIE = *Mémoires de l'Institut d'Egypte* .

MIFAO = *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* .

MUSJ = *Mélanges de l'Université Saint - Joseph* .

RCEA = *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe* .

RSO = *Rivista degli Studi Orientali* .

SI = *Studia Islamica* .

فهرست الموضوعات

صفحة

المُقدِّمه .... ١* – ٢٧*

الكتاب ومؤلفه .... ٤* – ١٨*

موضوع الكتاب .... ٤* – ٩*

مؤلِّف الكتاب .... ٩* – ١١*

نقول المتأخِّرين من الكتاب .... ١٢* – ١٨*

ابن الفُرَات .... ١٢* – ١٤*

ابن خَلْدُون ١٤*

ابن الزَّيَّات .... ١٤* – ١٥*

المَقْريزى ١٥*

القَلْقَشَنْدى ١٦*

أبو المَحَاسِن .... ١٦* – ١٧*

طريقتى فى إخراج النص .... ١٨* – ٢٦*

مخطوطة تاريخ ابن الفُرَات .... ١٩* – ٢٠*

مخطوطات « الخِطَط » وطبعاته .... ٢٠* – ٢٢*

نشْرَتى « صُبْح الأعْشَى » و « النُّجوم الزَّاهِرَة » ٢٣*

مَنْهجُ التحقيق .... ٢٤* – ٢٦*

نُظُمُ الفاطميين ورُسُومُهم فى مِصْر
كما جاءت عند ابن الطُّوَيْر .

تمهيـــد .... ٣١* – ٣٢*

نُظُم الفاطميين .... ٣٢* – ٧٨*

الإمام (الخليفة) .... ٣٦* – ٤٠*

الوَزَارَة .... ٤٠* – ٥٣*

صفحة

وزارة التنفيذ .... ٤٠* – ٤٣*

وزارة التفويض .... ٤٣* – ٥٣*

تطوُّر الدواوين الفاطمية .... ٥٣* – ٦٧*

القَضَـــاء .... ٦٧* – ٧٥*

الدَّعْــوَة .... ٧٥* – ٧٨*

رُسُومُ الفاطميين .... ٧٩* – ٨٧*

الوزير المأمون والخليفة الآمر وتقدير الرُّسُوم الفاطمية .... ٧٩* – ٨٤*

المَوَاكِبُ الاحتفالية زَمَن الفاطميين .... ٨٤* – ٨٥*

ميزانية الاحتفالات الفاطمية .... ٨٥* – ٨٧*

الطُّبوغرافية الدّاخلية للقصر الفاطمي .... ٨٧* – ١٠٠*

القَاعَةُ والمَجْلِس .... ٨٧* – ٩٦*

السِّهْدِلّا والشُّبَّاك والإيوان .... ٩٦* – ١٠٠*

الرُّمُوز والاختِصَارات ١٠١*– ١٠٢*

* * *